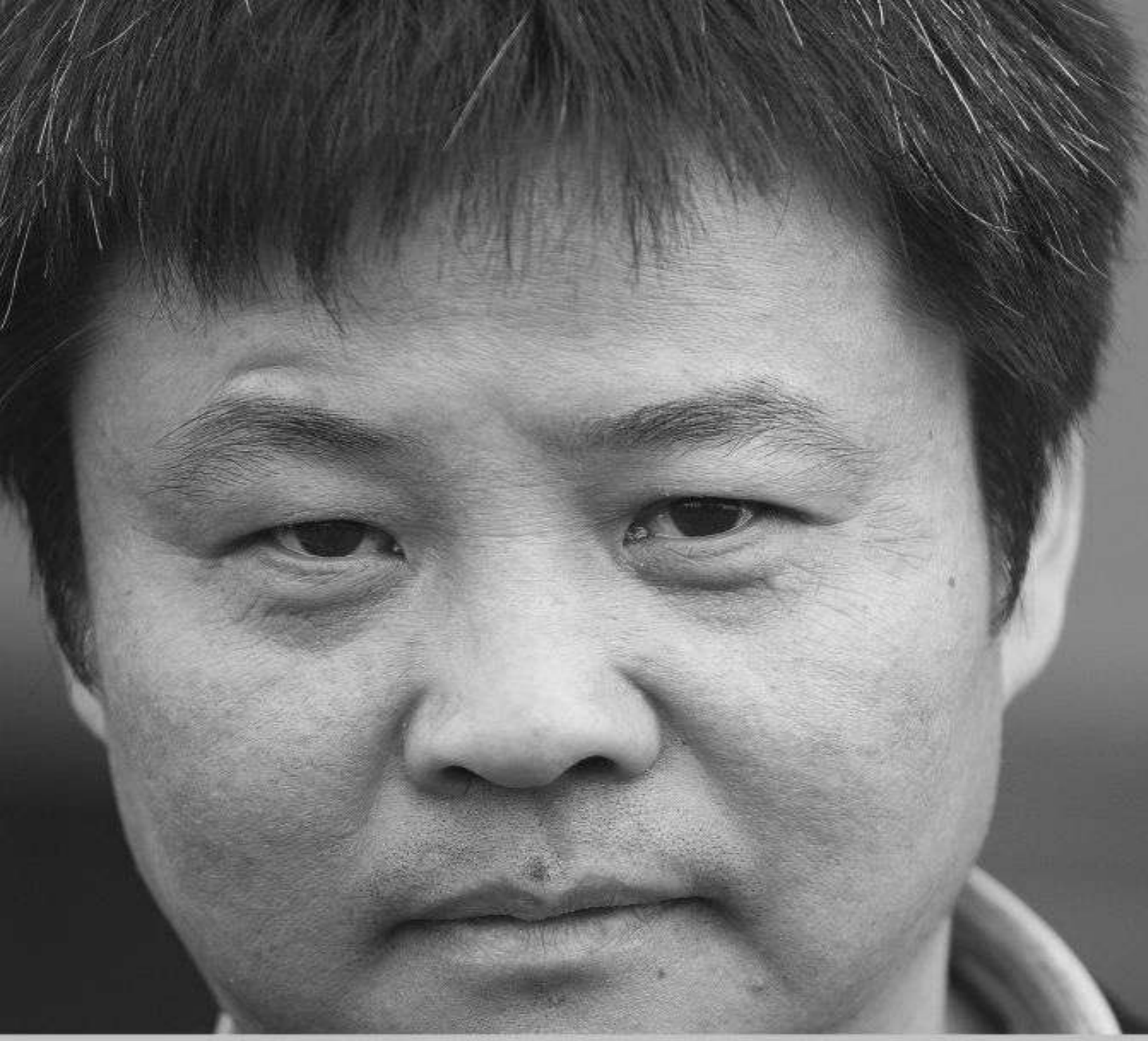

صيف حار

وقصص أخرى

سفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

تأليف: يوهوا
ترجمة : د. حسانين فهمي حسين

من الأدب الصيني المعاصر

«صيف حار» وقصص أخرى

تأليف: يوهوا

ترجمة وتقديم: د. حسانين فهمي حسين

سلسلة "قراءات صينية" سلسلة كتب مترجمة عن الصينية مباشرة حول الاقتصاد والسياسة والمجتمع والثقافة الصينية، تصدر عن دار صفصافة للنشر بمصر تحت إشراف الدكتور حسانين فهمي حسين.

د. حسانين فهمي حسين/ أستاذ مساعد بقسم اللغة الصينية كلية الألسن– جامعة عين شمس. صدر له العديد من الترجمات من الصينية إلى العربية والعكس. وعدد من الكتب التعليمية والمعاجم الثنائية بين اللغتين العربية والصينية.
حاصل على: "جائزة "الشباب للترجمة" –المركز القومي للترجمة– 2013". و"جائزة الإسهام المتميز في ترجمة الكتب الصينية– 2016" وهي أكبر جائزة تمنحها الصين للمترجمين الأجانب.

.....

((صيف حار)) وقصص أخرى
الطبعة الأولى 2017
رقم الإيـــداع: 2017/7995
الترقيم الدولي: 978-977-821-023-1
جميع الحقوق محفوظة ©
عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.
No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

هذه ترجمة عربية صادرة عن دار صفصافة للنشر لكتاب:

《余华短篇小说集》(珍藏版)
人民文学出版社 2017年出版

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

«صيف حار» وقصص أخرى

المحتويات

تقديم

رحلة شاب في الثامنة عشرة

فوق الجسر

صيف حار

الزائدة الدودية

بدون اسم

((الابن))

((انتصار الزوجة))

الشيخ القعيد

انفجار جوي

الصبي وحادث عند الغسق

تقديم

يتفق الكثيرون من المهتمين بالأدب الصيني، على أن حصول الصيني مويان على جائزة نوبل للآداب 20، كان له دور مهم في لفت الانتباه إلى الإبداع الصيني المعاصر، وتعرف الكثير من القراء حول العالم إلى الأدب الصيني وأهم مبدعيه، لا سيما في الدول والمناطق التي لم تكن قد شهدت صدور ترجمات لأي من أعمال جيل مويان من الكتاب الصينيين، ومن بينها المنطقة العربية وافريقيا وبعض دول أمريكا اللاتينية. وإن كان عدد غير قليل من الأعمال الأدبية المعاصرة، قد عرفت طريقها إلى القارئ الأجنبي (في الغرب وعدد من الدول الأسيوية على وجه التحديد) قبل سنوات طويلة من نوبل مويان، بمن فيهم كتاب فترة الأدب الصيني الحديث (1919–1949) والأدب المعاصر (1949– حتى الآن). من بين هؤلاء القاص والروائي يوهوا (1960–)، والذي تشير دراسات خاصة بانتشار الأدب الصيني المعاصر وترجماته خارج الصين، إلى أن أعمال الأديبين مويان ويوهوا تأتي على رأس الأعمال الأدبية التي ترجمت إلى لغات أجنبية، هذا من بين أعمال كتاب الفترة الجديدة في الأدب المعاصر (1978– حتى الآن). فرواية يوهوا ذائعة الصيت ((على قيد الحياة)) والتي صدرت طبعتها الأولى عام 1992 ، صدرت ترجمتها إلى اللغة الألمانية في نفس العام الذي صدرت فيه الطبعة الصينية، عن دار كليت– كوتا للنشر Klett–Cotta شتوتغارت. لتتوالى بعدها ترجمات هذه الرواية إلى لغات أجنبية عديدة كان آخرها اللغة العربية (2015). قدم يوهوا خلال مشواره الإبداعي الذي بدأه عام 1983 خمس روايات طويلة ترجمت جميعها إلى لغات أجنبية عديدة، وترجمت ثلاثة منها ((على قيد الحياة))، ((اليوم السابع)) و((مذكرات بائع الدماء)) إلى اللغة العربية عن الصينية مباشرة. كما قدم يوهوا ست مجموعات قصصية تجمع بين القصة والرواية القصيرة، ترجم عدد كبير منها إلى اللغات الأجنبية، فيما تعد هذه الترجمة التي بين يدي القارئ، أول ترجمة عربية لأعمال يوهوا القصصية.

((صيف حار وقصص أخرى)) الجزء الأول من ((الأعمال القصصية المختارة)) ليوهوا والتي صدرت طبعتها الصينية عن دار أدب الشعب الصينية للنشر في يناير 2017[1]، في مجلد يجمع بين دفتيه إحدى وعشرين قصة من أهم أعمال يوهوا القصصية، والتي نخطط لتقديمها في جزأين. يشتمل هذا الجزء على الترجمة العربية لعشر قصص تمثل مرحلة مهمة في مشوار يوهوا الأدبي، كتبها خلال الفترة 1986–1997، سجلت جانباً مهماً من مشواره الحياتي والإبداعي، وهو اهتمامه بتصوير الواقع الحياتي وهموم المواطن العادي ومآسي الإنسان البسيط ومعاناته من أجل العيش، فيما تعد ثنائية الحياة والموت، ذكريات الطفولة، العنف وغيرها تيمات رئيسة في أعماله. حاله كحال غيره من كتاب ((جيل الرواد)) في الأدب الصيني المعاصر، الجيل الذي قدم تجارب سردية جديدة، ساروا فيها على نهج وخطوات رموز الأدب الصيني القديم والحديث، مع تأثرهم الواضح بقراءاتهم من الإبداع العالمي. هذا الجيل الذي نشأ في ظروف صعبة في التاريخ الصيني الحديث، وعانى كثيرًا للحصول على الكتاب والكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية على وجه التحديد، وهو ما تحدث عنه مويان ويوهوا والكثير من أبناء هذا الجيل: ((لأسباب يعلمها الجميع، نشأت أنا وأبناء جيلي من الكتاب المعاصرين في بيئة كانت تعاني غياب الكتب. ففي الوقت الذي نضجنا فيه وبدأنا رحلة القراءة وعشق الأدب، صادف ذلك فترة الحظر التي كانت تفرضها الصين على الكتب الأدبية. ولا زلت أتذكر حتى اليوم الصفوف الطويلة التي كنا نشاهدها أمام المكتبات والتنافس لشراء الكتب الأدبية، هذا المشهد الذي لم أره بعد ذلك. فجأة وما أن انفتحت أمامنا الأبواب الموصدة، حتى انكببت على قراءة الكثير من إبداعات الأدب العالمي، والأدب الصيني

الكلاسيكي والحديث، قبل أن أجد نفسي مشدودا إلى الأدب العالمي. ولما كنت لا اتقن أية لغة أجنبية، فقد تعرفت إليه وقرأت الكثير من كنوزه المترجمة إلى اللغة الصينية، من خلال الترجمات الجيدة التي قدمها نخبة من المترجمين الصينيين الأكفاء، والذين لا يتسع المقام هنا لأعدد اسماءهم فردًا فردا)).[2]

يوهوا الذي نجد في كتاباته التأثر الواضح بواقعية لوشون النقدية، الذي ترك دراسة الطب ليدرس الأدب، إيماناً منه بأن الإنسان الصيني في عصره (مطلع القرن العشرين) كان بحاجة إلى العلاج النفسي والروحي أكثر من حاجته لعلاج الجسد، ليسير يوهوا على نهج الرائد لوشون ويترك طب الأسنان، بعد أن مارس مهنة طبيب أسنان لمدة خمس سنوات. كما نجد في ابداع يوهوا تأثره الكبير بما قرأه من أعمال لكتاب عالميين أمثال: كافكا، والروائي الياباني صاحب ((الجميلات النائمات)) ياسوناري كاواباتا، الذي يقول عنه يوهوا ((خلال فترة خمس إلى ست سنوات تتلمذت فيها على أعمال ياسوناري كاواباتا، تعلمت منه كتابة التفاصيل وكيفية التعبير عنها في العمل الأدبي.))[3]

تجدر الإشارة إلى أن اقدامنا على تقديم هذه المختارات القصصية ليوهوا، جاءت من خلال متابعتنا لحركة الترجمة الأدبية من الصينية إلى العربية، والتي بدأت تنشط بشكل ملحوظ منذ نوبل مويان كما أشرنا في دراسة لنا باللغة الصينية بعنوان ((ما بعد نوبل– دراسة انتشار الأدب الصيني عالميا– المنطقة العربية نموذجاً))، تم نشرها في عدد مايو 2016 من مجلة ((الدراسات الصينية)) التي تصدر عن جامعة اللغات ببكين. والتي رصدنا فيها دراسات وترجمات الأدب الصيني إلى العربية بعد نوبل الآداب 201، ووقفنا على أن اهتمام المترجمين العرب ينصب بشكل كبير على الترجمات الروائية لرموز الأدب الصيني الحديث والمعاصر، مقارنة بالترجمات التي صدرت للأعمال القصصية للكتاب الصينين. كما اهتمت الدراسة ذاتها بتحليل ضعف وتأخر الترجمة العربية للأدب الصيني المعاصر، وهو ما كشفه حصول مويان على نوبل 2012، حيث لم تكن قد صدرت ترجمات عربية لأعماله حتى اعلان حصوله على الجائزة.[4]هذا إلى جانب قراءتي المبكرة لأعمال يوهوا الروائية والقصصية، وتجربتي الأولى معه من خلال ترجمتي لروايته ((مذكرات بائع الدماء))، واهتمامي بأعماله القصصية والتي سبق لي أن درست مختارات منها لطلابي بجامعتي عين شمس والملك سعود، ثم تقديم الترجمة العربية لقصتين ليوهوا، نشرتا في ملف الترجمة بمجلة ((الثقافة)) الجديدة)) العدد 317 فبراير 2017. وهو ما أغواني أن أخطو الخطوة التالية وانخرط في ترجمة هذه المختارات ليوهوا بكل ما أوتيت من همة.

ولد يوهوا في 3 أبريل 1960 بمدينة خانغجوو جنوبي الصين، انتقل بعدها مع والديه إلى مدينة خاي يان بمقاطعة جه جيانغ، عمل لفترة كطبيب أسنان قبل أن ينتقل للعمل في إحدى الهيئات الثقافية بالمدينة التي كان يقيم بها، يقول عن هذه الفترة المهمة في حياته: ((كنت قد عملت في ((محال الأسنان)) لفترة خمس سنوات، رأيت خلالها عشرات الآلاف من الأفواه المفتوحة، حتى اعتراني الملل الشديد من هذه المهنة والأفواه المفتوحة. كنت كثيرا ما أقف أمام النافذة المطلة على الشارع بمحل عملي، كنت أرى من خلال النافذة عددا من العاملين في قصر ثقافة المدينة يتسكعون في الشارع، حتى وجدتني أغبطهم كثيراً على ما هم فيه. وذات مرة، سألت أحد العاملين في قصر ثقافة المدينة عن سبب تسكعه الدائم في الشارع، فأخبرني أن هذا من صميم عمله، فقلت في نفسي هذا هو العمل الذي أتمناه. عندها قررت ممارسة الكتابة، وتمنيت أن يكتب لي في يوم من الأيام العمل بقصور الثقافة.))[5]

بدأ يوهوا مشواره مع الكتابة عام 1983، قدم أول عمل له قصة قصيرة بعنوان ((النجوم)) في العدد1–1984 بمجلة ((أدب بكين)). قبل أن يلتحق بعدها للدراسة بمعهد لوشون للأدب بجامعة المعلمين ببكين، وهو المعهد الذي تخرج منه أيضاً مويان وعدد كبير من رواد الأدب الصيني المعاصر. أبدع

يوهوا عدداً من الأعمال في القصة والرواية والمقالة، حازت أعماله شهرة كبيرة داخل وخارج الصين، وكانت من أوائل الأعمال الأدبية المعاصرة لأبناء جيله التي ترجمت إلى عدة لغات أجنبية، من أهمها روايات: ((مناجاة تحت المطر)) (1991)، ((على قيد الحياة)) (1992)، ((مذكرات بائع الدماء)) (1995)، ((الأشقاء)) (2005) و))اليوم السابع)) (2013) وغيرها من الأعمال. ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية. بدأت ترجماتها بعد سنوات قليلة من بداية مشواره الإبداعي، حصل يوهوا على جائزة "جرينزان كافور)) الإيطالية (1998) و))وسام الفنون والآداب بدرجة فارس)) من فرنسا (2004) و))جائزة الإسهام المتميز في الكتاب الصيني)) (2005) وغيرها من الجوائز المحلية والعالمية.

حسانين فهمي حسين

20 مارس 2017

1- أشير إلى أنني بدأت في ترجمة القصص التي يتضمنها هذا الجزء قبل صدور هذه الطبعة لقصص يوهوا (طبعة يناير2017)، بعد أن أرسلها لي السيد يوهوا على بريدي الالكتروني خلال لقاء جمعنا على هامش "المؤتمر الدولي الرابع لترجمة الأدب الصيني"، نظمه اتحاد كتاب الصين في أغسطس 2016 بمدينة تشانغ تشون عاصمة مقاطعة جي لين بشمال شرق الصين. المترجم

2- يوهوا: مقالة بعنوان ((لماذا اخترت الكتابة))، المنشورة بكتاب "هل بالإمكان أن اصدق نفسي- مختارات من مقالات يوهوا"، دار جريدة الشعب اليومية للنشر، 1998

3- يوهوا: "هل بالإمكان أن اصدق نفسي- مختارات من مقالات يوهوا"، دار جريدة الشعب اليومية للنشر، 1998، ص 252.

4- صدرت الترجمة العربية لأهم أعمال مويان رواية ((الذرة الرفيعة الحمراء)) في يناير 2013 عن المركز القومي للترجمة عن الصينية مباشرة، وكانت أول ترجمة لمويان ولأبناء جيله من ((جيل الرواد)) في الأدب الصيني المعاصر، قبل أن يصدر له لاحقا أعمال أخرى عن الصينية وعن لغات وسيطة، أهمها: ((الحلم والأوباش)) (رواية قصيرة)، ((الثور))(رواية قصيرة)، ((الصبي سارق الفجل)) (رواية قصيرة)، ((رجل لا يكف عن المرح وقصص أخرى)) صدرت الأعمال السابقة عن الصينية مباشرة، ((التغيير)) (رواية قصيرة) صدرت عن الانجليزية. المترجم.

5- يوهوا: "هل بالإمكان أن اصدق نفسي- مختارات من مقالات يوهوا"، دار جريدة الشعب اليومية للنشر، 1998.

رحلة شاب في الثامنة عشرة

كان الطريق الأسفلتي يعلو وينخفض، وكأنه يمتد فوق موج البحر الهادر. وكقارب يتهادى على صفحة المياه، كنت أواصل السير على هذا الطريق الجبلي.

أتممت هذا العام الثامنة عشرة، وقد ظهرت في ذقني بضع شعيرات صفراء، كنت أعتني بها كثيراً لأنها أول عهدي بشعر الوجه. واصلت السير على هذا الطريق الجبلي لمدة يوم كامل، رأيت خلاله الكثير من الجبال والسحب. ذكرتني الجبال والسحب بأشخاص أعرفهم. حتى وجدتني أناديها بالأسماء المستعارة لهؤلاء الأشخاص الذين أعرفهم. وبالرغم من أنني قطعت مسافة يوم كامل، إلا أنني لم أشعر بأي تعب. بدأت رحلتي في الصباح الباكر، بدأ ينكسر ضوء النهار، وقد شارفتً الشمس على الغروب. ولكن قدماي لم تقوداني بعد إلى أي فندق على هذا الطريق الجبلي.

قابلت الكثير من الناس، والذين لم يكونوا يعرفون إلى أين يمتد هذا الطريق الجبلي، وإذا ما كان هناك أية فنادق. قالوا: ((واصل وسترى بنفسك.)) وكانوا محقين فيما قالوا، فها أنا الآن أسير لأرى واكتشف. وإن كنت لم أر حتى الآن أي فندق على هذا الطريق. فبدأت أشعر بالقلق تجاه ذلك.

شعرت بغرابة شديدة لأنني لم أر طوال اليوم سوى سيارة واحدة. وكان ذلك وقت الظهيرة، وقد فكرت ساعتها أن أستوقفها لأستقلها، لم يكن يشغلني آنذاك التفكير في أمر الفندق، كان أقصى ما أتمناه على هذا الطريق أن أجد سيارة تقلني إلى الأمام. فوقفت على حافة الطريق وجعلت ألوح لها. ولكنها مرت من أمامي بسرعة شديدة، دون نظرة واحدة من السائق والسيارة. فأخذت أركض ورائها بكل ما أوتيت من قوة، فقط لأُسلي نفسي، فلم يكن يشغلني آنذاك التفكير في أمر الفندق. لاحقتها حتى اختفت تماماً، قبل أن انفجر في الضحك بصوت عال، وما أن فكرت في أن الضحك بشدة قد يؤثر على تنفسي، حتى توقفت عن الضحك. ثم واصلت السير بحماس، قبل أن ينتابني شعور بالندم، ندمت على أنني لم أكن أمسك في يدي حجرًا.

كم أتمنى الآن أن أستقل سيارة، وقد شارفت الشمس على الغروب، ولم تظهر أية علامة تدل على وجود فندق قريب. ولكن لم تظهر أي سيارة طوال فترة العصر. أخذت أفكر في أنه إذا أتيحت لي الآن فرصة لاعتراض سيارة أحدهم، فمن المؤكد أنني سوف أنجح في إيقافها. فسوف أرقد في وسط الطريق، وأنا على يقين بأن جميع السيارات سوف تكبح فراملها على مسافة قريبة جداً من رأسي. ولكنني الآن لا استمع حتى إلى صوت محرك سيارة. ولم يعد أمامي إلا أن أواصل السير لأرى بنفسي. فما أصدق قولهم: واصل وسترى.

كان الطريق الرئيس يعلو وينخفض، بينما كانت تجذبني تلك المحطات المرتفعة على طول الطريق، كنت أركض نحوها بسرعة طمعاً في أن أجد فندقا يأويني، ولكن قدماي كانت تقوداني في كل مرة إلى مرتفع جديد، يفصل بينه وبين مرتفع آخر زاوية نصف قائمة وعتمة كئيبة. رغم هذا كله، لم أتوقف عن الركض من موضع إلى آخر دون أن أفقد حماسي. وأخيراً وقعت عيناي هذه المرة على شيء جديد، كانت سيارة نقل وليس فندقا. وقفت السيارة في نفس اتجاهي، في موضع منخفض على حافة الطريق. رأيت مؤخرة السائق المرتفعة وقد انعكس عليها ضوء الشفق، بينما كان يدفن رأسه في الجزء الأمامي من السيارة. فيما كانت السيارة محملة بكمية من السلال المصنوعة من البامبو، والتي توقعت أنها سلال فاكهة، وكم تمنيت أن تكون من الموز. وجعلت أفكر في أن كابينة السائق ستكون هي الأخرى ممتلئة

بالموز، عندها سأجلس إلى جواره وأتلذذ بالموز. وبالرغم من أن السيارة كانت ستتحرك في نفس اتجاهي، إلا أنني لم أكن أهتم كثيراً بذلك، فقد كنت في أمس الحاجة لفندق، وإذا تعذر فليس أمامي سوى البحث عن سيارة تقلني إلى الأمام، وها هي أمام عيني الآن.

أخذت أركض نحو السيارة بحماس شديد، ثم ناديت على السائق: ((أهلا يا بلدياتي.))

فبدا لي أن السائق لم يسمع ندائي، ولم يرفع رأسه عن مقدمة السيارة.

((تفضل سيجارة.))

وهنا رفع رأسه عن مقدمة السيارة، ومد إليّ يدا ملطخة بالشحم الأسود، أخذ السيجارة بين اصبعيه. واشعلها في التو، ثم أخذ منها عدة أنفاس، قبل أن يدفن رأسه داخل مقدمة السيارة من جديد.

بدأت أشعر الرضى والاطمئنان، فطالما أنه قبل السيجارة، فإنه سيوافق على أن يصحبني معه. فأخذت أدور حول السيارة المتوقفة، بهدف التعرف على محتويات حمولتها. ولما لم أتمكن من رؤية ما بداخل السلال، بدأت أتشممها، فإذا بها رائحة تفاح. فقلت في نفسي إن التفاح أيضًا لذيذ.

لحظات وتمكن السائق من إصلاح العطل، ثم أغلق غطاء مقدمة السيارة. فقلت له في عجالة: ((هلا صحبتني معك.)) فجاء رد فعله عكس ما توقعت تماماً، راح يلوح لي بيده ويصيح بلهجة قاسية: هيا اغرب عن وجهي.))

غضبت من ردة فعله، فلم أجد ما أقوله، قبل أن أجدني أفتح الباب على مهل وألقي بنفسي داخل كابينة السائق، كنت على يقين بأنني إذا ضيعت هذه الفرصة في استقلال السيارة، فلن تكون أمامي فرصة ثانية، وأدركت أنني على موعد مع معركة حاميه معه، فما أن ألقيت بنفسي داخل الكابينة، حتى قلت غاضباً: ((إنك الآن تشعل سيجارتي.)) هذا في اللحظة التي كانت السيارة بدأت تتحرك.

إلا أنني وجدته ينظر إليّ والابتسامة تعلو وجهه، الأمر الذي جعلني أشعر بحيرة شديدة من تصرفه. ثم سألني:

((ما هي وجهتك؟))

((ليس لي وجهة محددة.)) أجبته بصدق.

((هل ترغب في تناول التفاح؟)) سألني بلطف، وعيناه لا تفارق وجهي.

((هذا لا يحتاج إلى سؤال.))

((إذن، هيا إلى الصندوق الخلفي لتأخذ كفايتك.))

وهل يمكن أن أنزل من كابينة القيادة الآن وهو يقود بهذه السرعة؟ قلت في نفسي، وفي النهاية وجدتني أرد: ((لا داعي الآن.))

((هيا أنزل وخذ كفايتك.)) قال وعيناه لا تفارق وجهي.

((لترفع عيناك عني، فالطريق أمامك وليس مرسوما على وجهي.)) قلت.

فأدار رأسه عني وأخذ ينتبه إلى الطريق.

مضت السيارة في نفس الاتجاه الذي أتيت منه قبل قليل، بينما كنت أجلس في كابينة السائق وأنا اشعر بالراحة التامة، أتطلع إلى الطريق من خلال النافذة، بدأت حواراً معه. وقد أصبحنا الآن صديقين. عرفت منه أن يعمل في تجارة نقل البضائع، وأن هذه السيارة ملكه وكذلك حمولة التفاح. كما سمعت صوت

النقود في جيوبه. قبل أن اسأله: ((وما هي وجهتك الآن؟))

((دعنا نتقدم وسترى.)) قال.

قالها بلطف شديد، حتى شعرت بأنني أتحدث مع أخي. أحسست بأن علاقتنا أصبحت أكثر قرباً. وبما أنني كنت أعرف جميع المناظر الممتدة على جانبي الطريق، وأنها كانت تذكرني بأشخاص أعرفهم تمام المعرفة، فقد رحت أنادي عليها بجملة جديدة من الأسماء المستعارة التي تختزنها ذاكرتي.

لم يعد يشغلني الآن أمر الفندق، بعد هذا الشعور بالراحة والاطمئنان وأنا في هذه السيارة، مع هذا السائق وعلى هذا المقعد. وإن كنت لا أعلم شيئاً عن وجهة السيارة، بل والسائق نفسه لا يعرف. فعلى أي حال، لا يشغلنا هذا في شيء، طالما أن السيارة تواصل السير نحو الأمام، وسنواصل لنرى.

تعرضت السيارة لعطل مفاجئ. ساعة أن أصبحت أنا والسائق صديقين حميمين. عندها أخذت أربت على كتفه، وهو يربت على كتفي. وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يحكي لي عن حبه الأول، تعطلت السيارة. وهي في طريقها للصعود إلى منحدر على الطريق، توقفت فجأة في مكانها كجثة هامدة. فتقدم هو إلى مقدمة السيارة، ودس راسه هناك في محاولة لإصلاح العطل. فيما بقيت أنا في مكاني في الكابينة، وأنا استمع إلى صوت محاولاته لإصلاح العطل، كنته اسمع صوته ولا أراه.

لحظات ورأيته يرفع رأسه ويغلق الغطاء. ثم رأيته يمسح يداه اللتان بدتا ملطختان بالشحم في ملابسه، قبل أن يقفز إلى الأرض.

((تمكنت من إصلاحها؟)) سألته.

((للأسف، يبدو أنه عطل كبير.)) قال.

فكرت للحظات، ثم سألته ثانية ((وما العمل إذن؟))

كنت ما أزال جالساً على مقعدي في الكابينة، ولا أدري ماذا يمكن أن نفعل في هذه المصيبة. فعاودت التفكير في الفندق. هذا بينما كانت الشمس تستعد للرحيل، فأخذ القلق بشأن الفندق يسيطر على كل تفكيري.

وإذا بالسائق يقف في منتصف الطريق منشغلاً بأداء بعض التمرينات الرياضية، والتي رأيته يؤديها بكل جدية حتى النهاية. هذا قبل أن أراه يجري حول السيارة. حتى بدا لي وكأنه كان في أمس الحاجة لهذه التدريبات، بعد جلسته الطويلة أمام عجلة القيادة. وما أن رأيته على تلك الحالة، حتى تشجعت وقفزت من كابينة القيادة. وإن كنت لم أشاركه في أداء التمرينات الرياضية، وإنما واصلت التفكير في الفندق.

ثم رأيت خمسة أشخاص ينزلون من على المنحدر، وهم يستقلون الدراجات الهوائية، وعلى المقعد الخلفي لكل دراجة قائم معلق به سلتين كبيرتين، فقلت في نفسي أنهم قد يكونوا من المزارعين الذين يقيمون في هذه المنطقة، وأنهم عائدين من رحلتهم اليومية لبيع الخضروات. وما أن رأيتهم ينزلون عن المنحدر، حتى شعرت بسعادة كبيرة، ودنوت منهم قائلاً: ((أهلا يا رفاق.))

وما ان اقتربوا مني حتى نزلوا عن دراجاتهم. فأخذت أرحب بهم في سعادة، قبل أن أسألهم: ((هل يوجد فندق قريب من هنا؟))

لم يجيبوا على سؤالي، وسألني أحدهم:

((ماذا تحمل هذه السيارة؟))

((تفاحاً.)) قلت.

تقدموا بدراجاتهم إلى جوار السيارة، قبل أن يصعد اثنين منهم أعلاها، ويلقيا بمحتويات عشر سلال من التفاح، ليستقبلها الثلاثة الذين هم بالأسفل في سلالهم. باغتني ما قاموا به، حتى وجدتني أقف مذهولاً لبرهة. وما أن أدركت هول الموقف، حتى انقضضت عليهم، وسألتهم بنبرة اللوم: ((ماذا تفعلون؟))

لم يعيروني أي اهتمام، واستمروا في تفريغ سلال التفاح. صعدت إلى أعلى السيارة، قبضت على يد أحدهم وأنا اصرخ بأعلى صوتي: ((امسكوا هذا اللص!)) قبل أن أتلقى لكمة قوية في أنفي، ألقت بي على بعد أمتار من السيارة. وعندما نهضت وأخذت أتحسس أنفي، خُيل لي وكأنها تحولت إلى قطعة لحم معلقة في وجهي، والدماء تسيل منها كالدموع. وفي اللحظة التي تعرفت فيها على صاحب اليد القبضة القوية الذي لكمني، وجدتهم استقلوا دراجاتهم ومضوا بعيداً.

في تلك اللحظة، رأيت السائق يمشي ببطء، بينما هو يتنفس بسرعة، فبدا لي أنه ركض حتى سقط من التعب. كما يبدو أنه لا يعلم بما حدث لفاكهته قبل قليل. فبدأت أصيح بأعلى صوتي: ((لقد سرقوا التفاح!)) لكنه لم ينتبه لما أقول، وإذا به يواصل السير ببطء. فوددت لو تقدمت ولكمته لكمة في أنفه، حتى تسيل منها الدماء وتؤلمه كما تألمت أنا قبل قليل. دنوت منه وأخذت أصرخ في أذنه: ((لقد سرقوا حمولة التفاح!)) فالتفت إليّ، إلا أنني لاحظت أن هذا الخبر أسعده كثيراً، وإذا به يحدق في أنفي المصابة.

ثم رأيت رهطٌ من الناس ينزلون المنحدر مستقلين الدراجات، وخلف كل دراجة سلتين كبيرتين، ومن بين هؤلاء رأيت بعض الصبية الصغار. تجمعوا معاً ثم حاصروا السيارة. قبل أن يصعد بعضهم أعلى السيارة، وتبدأ عملية تفريغ السلال لأسفل، حتى بدا مشهد التفريغ كالدماء التي تسيل من أنفي. وقد رأيتهم يفرغون محتويات سلال التفاح بجنون. لحظات قليلة وتمكنوا من تفريغ كامل الحمولة على الأرض. وفي غضون ذلك، رأيت عدداً من الجرارات اليدوية تنزل عبر المنحدر، قبل أن تقف جميعها بجوار السيارة، ثم نزل من الجرارات مجموعة من الرجال الأقوياء، وبدأوا في تحميل التفاح على الجرارات، بينما ألقوا بالسلال الفارغة بعيداً. وقد امتلأ المكان حول السيارة بحبات التفاح، والتي كانوا يجمعونها وهم جالسين القرفصاء كالضفادع.

عندئذ لم أتمالك نفسي، فانقضضت عليهم بشجاعة من لا يهاب شيئاً، وأخذت أسبهم بأعلى صوتي: ((أيها اللصوص!)) فما كان منهم إلا أن وجهوا لي سيل من اللكمات والركلات، التي لم يسلم منها موضع واحد في جسدي. وما كدت أتحامل على نفسي وأنهض، حتى استقبلني مجموعة من الصبية وأخذوا يضربونني بحبات التفاح في رأسي. وفي اللحظة التي كدت أن أنقض علي الصبية دفاعاً عن نفسي، ركلني أحدهم ركلة قوية في ظهري. فحاولت أن أصرخ للاستغاثة، ولكن خانني صوتي. فسقطت على الأرض، ولم أعد أفكر في النهوض، واكتفيت بأن أحدق فيهم وهم يستولون على حمولة السيارة. بينما أخذت عيناي تبحث عن السائق، حتى وجدته يقف بعيداً ينظر إليّ وهو يقهقه بصوت مرتفع، فتأكدت من أن حالته الآن أفضل بكثير مما كانت عليه قبل قليل، لحظة أن شبهتها بأنفي المصابة.

بلغ مني التعب مبلغه، حتى لم أعد قادراً على التنفيس عن غضبي. فاكتفيت بالنظر إلى مصادر الغضب، والتي كان السائق على رأسها.

ثم نزلت مجموعة جديدة من الجرارات والدراجات من المنحدر، وقد جاء بها أصحابها مباشرة إلى موقع الاستيلاء على حمولة التفاح. هذا بينما كانت كمية التفاح الملقاة على الأرض تتناقص، في اللحظة التي رأيت بعضهم يغادر المكان، والبعض الآخر يقصده للتو. وقد رأيت الجماعة الأخيرة يقصدون

السيارة، فقاموا بفك زجاج السيارة واطاراتها، حتى المقاعد لم تسلم منهم. حتى بدت السيارة بعد أن جردوها من الإطارات كهيكل من الحديد ملقى على الأرض. فيما انشغل عدد من الصبية بجمع السلال الفارغ. هكذا حتى بدأ المكان يبدو نظيفاً بعد أن فرغ من التفاح والناس. هذا في الوقت الذي كنت اكتفي بمشاهدة ما يحدث أمامي، بعد أن فقدت القدرة على التعبير عن غضبي.

أصبح المكان فارغاً من كل شيء، إلا من جرار كان يقف إلى جانب السيارة. فيما كان هناك نفرٌ من الناس يحدقون هنا وهناك، بحثاً عن أي شيء متبقى للاستيلاء عليه. لينتهي المشهد بصعودهم الواحد تلو الآخر فوق الجرار، ثم أدار أحدهم الجرار وغادروا جميعاً.

وقع بصري على سائق السيارة يركب معهم الجرار، رأيته يجلس في مقطورة الجرار ينظر إليّ وهو يقهقه. كما رأيت في يده حقيبتي الحمراء. لقد سرق حقيبتي، والتي كان بها ملابسي ونقودي، إلى جانب بعض الأطعمة والكتب. وها هو سرقها ولم يترك لي شيئاً.

تابعت الجرار وهو يصعد المنحدر، حتى اختفي تماماً، بينما كنت لا أزال اسمع صوته وهو يبتعد، قبل أن يسكت الصوت تماماً. قبل أن يخيم السكون والظلام على المكان. فيما كنت لا أزال جالساً في مكاني، وقد اجتمع عليّ البرد والجوع معاً، بعد أن فقدت كل شيء.

طالت جلستي في المكان الذي شهد سقوطي، قبل أن أتحامل على نفسي وانهض ببطء. تألمت كثيراً حتى تمكنت من الوقوف على قدمي. أخذت أعرج حتى وصلت إلى جوار السيارة، وإذا بها تحولت إلى شبح مخيف، وقد أصابها مثل ما أصابني من التدمير.

لف الظلام المكان، وقد أصبح فارغاً من كل شيء، فيما عدا جسم السيارة وجسمي بما أصابهما من التدمير. رحت أنظر إليها بحزن شديد، وتخيلتها تنظر إليّ بنفس العاطفة. مددت يدي أتحسسها، فإذا بها تشكو من البرد. قبل أن تهب رياح شديدة، اهتزت معها أوراق الأشجار مصدرة صوتاً كصوت الموج، فأرعبني صوت أوراق الشجر، فأصابني مثل ما أصاب السيارة من البرد الشديد.

فتحت الباب وألقيت بنفسي داخل الكابينة، فلم يكونوا قد استولوا على مقاعد الكابينة، فأسعدني ذلك. رقدت لبعض الوقت، شممت رائحة زيت السيارة، والتي وجدتها أشبه ما تكون برائحة الدم الذي يسيل من أنفي. اشتدت الرياح خارج الكابينة، بينما بدأت أشعر بشيء من الدف وأنا وبالداخل. مضيت أفكر في أن السيارة بالرغم من أنها اصبحت مجرد أشلاء، إلا أنها لاتزال تتمتع بقلب سليم ودافئ، وهكذا قلبي الآن، فلم أكن أتوقع أن الفندق الذي بحثت عنه كثيراً ينتظرني هنا.

رقدت داخل كابينة السيارة، تذكرت تلك الظهيرة ذات الأجواء الصحوة المعتدلة، واليوم المشمس الجميل. تذكرت أنني قضيت وقتاً طويلاً خارج البيت في سعادة غامرة، قبل أن أعود إلى البيت، وأرى أبي من خلال النافذة داخل غرفته منشغلاً بترتيب حقيبة حمراء، فدنوت من النافذة وسألته: ((أبي، هل تستعد للسفر؟))

فاستدار وقال بلطف: ((بل أجهز لك حقيبة سفرك.))

((تجهز لي حقيبة السفر؟))

((نعم، ها أنت بلغت الثامنة عشرة، ويجب أن تسافر لتتعرف على هذا العالم.))

فحملت تلك الحقيبة الحمراء الجميلة، بينما أخذ أبي يربت على ظهري، وكأنه يمسح على ظهر حصان، فخرجت وأنا سعيد، ورحت أركض بسرعة وفي سعادة كحصان يعدو بحرية وفي سعادة غامرة.

كتبت في 16.11.1986

فوق الجسر

((دعينا..)).

قالها قبل أن يلتفت إليَّ، بينما سطعت أشعة شمس الظهيرة على إطار نظارته السوداء. وقد شعرت للحظات أن نظارته مثبتة على شعره الطويل بشكل ملفت للانتباه، أشاح بوجهه عنها فجأة، فابتعدت عن سور الجسر، وانتظرته يكمل حديثه إليها، لعله يقول:

((دعينا نعود إلى البيت)).

أو ((يجب أن نعود الآن)).

كانت تقف هنالك منكمشة، قدمها اليمنى مثنية نحو الأمام، في انتظار إشارة منه للتحرك. لكنه لم يفعل.

كان لا يزال واقفًا في مكانه مستندًا إلى سور الجسر، يتنقل بنظراته هنا وهناك، كطائرة ورقية انقطع خيطها فجأة بينما كانت تحلق في الهواء. لم تجد بدًّا إلا أن تخلصت قليلًا من توترها وسألته:

((إلامَ تنظر؟)).

أخذ يسعل، ليس ذلك السعال الذي يصدر عند الإصابة بنوبة زكام، وإنما سعال مَن يسلك حنجرته. هل تراه يستعد للكلام الآن؟ تابعت حركة أسنانه وشفاهه. سمعت صياح مجموعة من التلاميذ، جاءوا إلى الجسر يلوحون بحقائبهم، قبل أن ينقضُّوا على سور الجسر كسرب طيور حطت فجأة على الأسلاك الكهربائية، في انتظار صافرات المراكب التي تقترب من الجسر.

وما إن انتشر دخان المراكب على الجسر حتى تعالت أصوات التلاميذ، قبل أن يتناثر بصاقهم في اتجاه طواقم المراكب، بينما اقترب من الجسر أكثر من عشرة مراكب، لم ينجُ أطقمها من بصاق التلاميذ. فراح الجالسون في مقدمة المراكب يلوحون بأيديهم، ويحاولون تجنب بصاق التلاميذ، كمن يحاول تجنب السهام الموجهة نحوه. ولما عجزوا عن ذلك، وجدوا في السب خير تعبير عن غضبهم مما يفعله هؤلاء التلاميذ، قبل أن يصدروا الأوامر لكلابهم التي كانت على ظهر المراكب، والتي راحت تجري على ظهر المراكب بينما نباحها يتعالى بشدة، وكأنها تلاحق أحدهم في الشارع، حتى أثار المشهد التلاميذ، فتناسوا ما كانوا يقومون به، وراحوا يتابعون الكلاب باندهاش واضح، بينما تتعالى ضحكاتهم.

عاد يقول: ((دعينا..)).

التفتت إليه، وانتظرته يكمل.

كان قد بدأ قبل أسبوع تقريبًا يتابع باهتمام موعد دورتها الشهرية، وهو الذي لم يكن يهتم بها من قبل. فبعد مرور خمسة أعوام على زواجهما، وبينما كان في ظهيرة ذلك اليوم يرقد على السرير، وقبل أن يخلع عنه ملابسه وحذاءه، أخبرها أنه لا يريد النوم الآن، ثم شد طرف اللحاف وألقى به عليه، قبل أن يقول وهو يتثاءب:

((سأغفو قليلًا)).

كانت تجلس على الكنبة الملاصقة للنافذة، تنسج له كوفية، وعلى الرغم من أنه يفصلهما عن الشتاء شهور طويلة، إلا أنها فضَّلت أن تنسجها الآن، إيمانًا بأن الحذر واجب. تسربت شمس الخريف من خلال النافذة، فأحست بشيء من الدفء في رقبتها، فاستمدت يدها اليسرى مزيدًا من الطاقة في نسج خيوط

الكوفية. وقد جعلها هذا كله بالإضافة إلى زوجها الذي يرقد على السرير، جعلها تشعر بالرضا والسرور.

وبينما هي كذلك، نهض زوجها الذي يعمل سائق شاحنة، نهض فجأة مثل سماع أحدهم فجأة صوت فرامل شاحنة على الطريق السريع، وسألها:

((هل جاءت؟)).

((مَنْ تقصد؟)). سألته وقد أزعجها سؤاله.

قال وقد اتسعت عيناه بعد أن خلع النظارة:

((الإجازة، الدورة الشهرية، صديقتك القديمة)).

أضحكها رده، واستخدامه لكلمة الصديقة القديمة وهي التسمية التي أطلقتها هي على الدورة الشهرية، بينهما صداقة تمتد لعشر سنوات، تزورها هذه الصديقة القديمة مرة كل شهر، تزورها ومعها الشعور بألم في المعدة. هزت رأسها وأخبرته بأنها لم تأت بعد.

((ولكن هذا موعدها)). قال وهو يلبس النظارة.

((نعم هذا موعدها)). قالت تؤكد على كلامه.

((وكيف لم تأت؟)).

لاحظت على وجهه شيئًا من التوتر والقلق. تُرى هل أخذ قيلولته في هذه الظهيرة المعتدلة، ثم أفاق فجأة فقط لأجل أن يسألها عن الدورة الشهرية؟ أحست أنه يراوغها لأمرٍ في نفسه، فضحكت بصوت مسموع. بينما بدا هو مهمومًا، قبل أن يجلس على حافة السرير ويسألها ثانيةً بصوت حاد:

((اللعنة، هل أنت حامل؟)).

لم تفهم مصدر كل هذا القلق والتوتر الذي يكسو وجهه، حتى ولو كانت حاملًا بالفعل، فليس هذا بالخبر الذي يدعو للقلق والحزن، تذكرت ما قاله لها عند زواجهما:

((أريدك أن تنجبي لي ابنًا، أريد منك ابنا وليس بنتًا)).

((أنسيت الولد الذي تريده؟)). سألته.

((كلا)). قالها بصوت أقرب إلى الصراخ منه إلى الرد بلهجة عادية، ((لا يمكن أن تنجبي.. فإذا حدث هذا الآن سوف.. ستكون مشكلة كبيرة)).

((وما هي المشكلة؟)). سألته قبل أن تقف وتتابع غاضبة: ((تزوجنا بأوراق رسمية.. تزوجتني بمحض رغبتك، استقبلتني بالطبل والزمر، فما هي المشكلة في أن أنجب منك؟ وهل نسيت الهودجين والسيارات التي استأجرتها يوم العرس؟!)).

((لم أقصد هذا كله)). لوَّح بيده وقاطعها.

((إذن، فماذا تقصد؟)).

وخلال الأسبوع الذي تلا هذا النقاش بينهما، كان يتابع بجنون زيارة صديقتها القديمة، ففي كل مرة يعود من ورديته في قيادة الشاحنة، وإذا صادف ذلك وجودها في المنزل، كانت تسمع وقع خطواته السريعة على الدرج، ثم صوت المفتاح وهو يديره في باب الشقة، قبل أن يقتحم الباب ويظهر أمامها وعيناه على الشرفة، ثم يسألها بصوت حزين:

((لم تغسلي ملابسك الداخلية؟)).

وما إن يسمع ردها بالإثبات، حتى يتابع وقد أحس ببصيص من الأمل:

((جاءت؟)).

((لم تأت بعد)). أجابت بصراحة.

شعر فجأة بأن قدميه لا تحملانه، فجلس على الكنبة وقال وهو يتنهد:

((هذه هي أكثر لحظة أكره فيها أن أصبح أبًا)).

شعرت بحيرة شديدة من الحالة التي تراه عليها، لقد أصبح شخصًا آخر بسبب هذا الخوف الذي يسيطر عليه من الحمل، فسألته:

((ماذا بك؟ ولماذا كل هذا الخوف من أن أكون حاملًا؟)).

أخذ ينظر إليها بصورة مثيرة للشفقة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، رق قلبها، وتناست خوفه وقلقه من الحمل، وبدأت تشعر بالقلق عليه، فقالت تواسيه:

((لقد تأخرت خمسة أيام فقط، وهل نسيت أنها تأخرت في إحدى الزيارات عشرة أيام كاملة)).

((حدث هذا بالفعل؟)). قال بينما لمعت عيناه تحت النظارة.

لاحظت تلك الابتسامة البريئة التي ارتسمت على وجهه، وتذكرت سؤاله لها بالأمس بنفس هذه الابتسامة:

((وهل استعملتِ الفوط الصحية؟)).

((لم يحن وقتها)).

((يجب أن تستعمليها))، وأضاف: ((فلا يمكن أن تأتي إذا لم تحافظي على استعمال الفوط الصحية)).

((مستحيل)). قالت وقد بدا أنها غير مهتمة بكلامه.

((وهل يمكن أن يصطاد الصياد دون أن يلقي بالطعم للسمك؟)). قال غاضبًا.

فاستعملت الفوط الصحية، بعد أن أجبرها على ذلك بتعنته الصبياني. وما إن تتذكر تشبيهه لاستعمال الفوط الصحية برمي الصياد الطعم للسمك، حتى لا تتمالك نفسها من الضحك بصوت مسموع. ولم تكن لتفعل ذلك لولا ملامح البراءة التي رأتها على وجهه. وفي بعض الأحيان كانت تتذكر السنوات الخمس التي قضياها معًا، وأنه لم يكن يهتم بالدورة الشهرية بهذا الشكل، ولكنه تغير إلى شخص آخر تمامًا، بعد أن أفاق من غفوة أخذها في ظهيرة أحد الأيام. لم ترهق نفسها بالتفكير فيما وراء هذا التغيير الذي أصابه فجأة، في حين بدأت تشعر بالقلق لتأخر الدورة الشهرية. وهي التي لم يكن يشغلها هذا الأمر من قبل، فقط كانت تشكو عندما يشتد عليها ألم المغص، في حين أنها وجدت نفسها الآن مضطرة لانتظارها، وبدأت تميل إلى تصديق أنها قد تكون حاملًا.

وإن كانت ترفض الربط بين استعمال الفوط الصحية وبداية الدورة الشهرية.

((أنت بالتأكيد حامل)). قال قبل أن يتابع ضاحكًا: ((وسوف تشعرين ببعض التعب)).

فهمت قصده، وأنه يتحدث عما ستعاني منه خلال عملية الولادة، فقالت:

((أريد هذا الطفل)).

((أرجو أن تسمعيني جيدًا)). قال بهدوء وهو يجلس على الكنبة، وتابع: ((أرى أن الوقت مبكر جدًّا لأن

ننجب، فلا نملك المال الكافي للإنفاق على الطفل، فراتبك قد يكفي بالكاد أجر المربية، وقد يحتاج الطفل في الشهر الواحد ضعف راتبك على الأقل)).

قالت: ((لسنا بحاجة إلى مربية)).

((تريدين أن تُحمّليني أكثر من طاقتي!)). قال غاضبًا.

((اطمئن، لن يحدث ذلك، سأعتني به بنفسي)).

((أنت نفسك تحتاجين لمن يعتني بكِ، فيكفي أن أعتني بطفلة واحدة، أما أن أعتني باثنتين فهذا..)). ثم جلس على الكنبة وقال بلهجة حزينة: ((ما أتعسني)).

نهض من مكانه وأخذ يلوح بيده، وقال بلهجة من اتخذ قراره النهائي:

((نجهضه)).

((لست أنت الذي تحمله في أحشائك))، وتابعت: ((ولن يتعبك الحمل في شيء)).

((أنت لم تتجاوزي الرابعة والعشرين، وأنا أكبر منكِ بعام واحد فقط، عليك أن تفكري في الأمر جيدًا..)).

خرجا بعد عصر أحد الأيام يقصدان المستشفى، وقد بدا أنهما تأكدا من الحمل، وأنهما سيذهبان إلى معمل المستشفى للتحقق من ذلك. وبينما كان هناك عدد قليل من المارة في الشارع، قال وهو يخفض صوته:

((لتفكري معي، إننا إذا أنجبنا الآن سيكون لدينا أحفاد قبل أن نبلغ الخمسين، وستكونين جدة وأنت في الأربعين، وذلك قبل أن يطرأ على ملامحك وقوامك أي تغيير، فكري فيما ستتناقله الألسن وأنت جدة وتبدين في الثلاثين من عمرك.

((لا أخشى أن أصبح جدة)). قالت وهي تلتفت إليه.

((ولكنني أخشى أن أصبح جدًّا)). صرخ فجأة قبل أن ينتبه إلى بعض المارة ينظرون إليه، فخفض صوته وقال بلهجة غاضبة: ((اللعنة عليكِ، أضعت وقتي معك في كلام لا طائل منه)).

ابتسمت ابتسامة خفيفة، قبل أن تقول وهي تنظر إلى وجهه العابس:

((إذن، هلا توقفت عن الحديث في هذا الأمر؟)).

وبينما كانا يسيران تجاه المستشفى، كان لا يتوقف عن الهمس في أذنها، في محاولات أخيرة لإقناعها بالتخلي عن الطفل. فبدأ يغلبها شعور بالقلق، فإذا كان زوجها يخشى من الطفل وهي حامل، فماذا بعد أن تضع مولودها. فبدأ يسيطر عليها الشعور بالقلق، توقفت فجأة وقد شعرت بألمٍ في معدتها، يبدو أنها سمعت صوتًا مصدره معدتها، ولما كانت تعلم حقيقة الصوت، أخذت نفسًا عميقًا، سيكون هذا الصوت سببًا لنهاية القلق الذي تشعر به، وكذلك الغضب الذي يسيطر على زوجها. فقالت:

((لا داعي للذهاب إلى المستشفى)).

ولما كان لا يزال يحاول إقناعها بإجهاض الطفل، فما إن سمعها حتى لوح لها وقد بدا عليه التعب، اعتقادًا منه أنها غضبت من إلحاحه، فقال:

((حسنًا، سأسكت)).

((لقد جاءت صديقتي القديمة)). قالت.

ثم ضحكت بصوت مسموع، بينما رأته يحدق فيها بعينين جاحظتين دون أن ينطق بكلمة واحدة. تركته إلى دورات المياه الواقعة على يمين الطريق، فيما جلس هو ينتظرها على درج دار السينما. خرجت وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، وهزت له رأسها من بعيد بالإيجاب، فتأكد من أن صديقتها قد جاءت. انفرج وجهه عن ابتسامة طال انتظارها، لازمته عصر ذلك اليوم، قبل أن يعود لتجهمه فور الوصول للجسر، ويتحول فجأة إلى إنسان صارم ذي وجه متجهم، ويغرق في تأملاته.

جلست إلى جواره، وأخذت تنظر إلى المراكب وهي تبتعد عن الجسر، وإلى التلاميذ وهم يغادرون المكان. ظل صامتًا لفترة طويلة، قبل أن يقول لها قبل لحظات: ((دعينا..)). توقعت أنه يرغب في العودة إلى البيت، ولكنه لم يزحزح قدميه من موضعهما. فابتسمت ابتسامة خفيفة، وقد عرفت الآن ماذا يريد أن يقول لها، فقد يقول: ((لا داعي لأن تعودي إلى البيت لإعداد الطعام، هيا بنا إلى المطعم)). وقد ترتسم على وجهه ابتسامة معبرة عن الرضا والسرور ويقول: ((يجب أن نحتفل معًا، احتفالًا يليق بهذا الخبر)). ثم يلعق شفتيه بلسانه ويقول: ((ويجب أن أشرب حتى الثمالة)). على كل حال، سوف يجد مبررًا للاحتفال، حتى وإن عجز عن ذلك، فسوف يقول: ((مزاجي اليوم جيد جدًّا، دعينا نحتفل معًا)).

توقفت نظراته الحائرة على وجهها، قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا ويقول:

((دعينا..)).

توقف قليلًا، ثم أكمل بصوت مبحوح:

((دعينا ننفصل)).

وقفت تنظر إليه في ذهول، وكأنها لم تفهم ما قال، قبل أن يباغتها بحركة شبه دائرية ويقول لها بابتسامة يكسوها الحرج الشديد:

((يجب أن أنصرف الآن)).

وقفت فاغرة فاهها، أخذت تنظر إليه وهو يبتعد عن الجسر واضعًا يديه في جيبي بنطاله، وكأن شيئًا لم يحدث، قبل أن تهب موجة رياح وتعبث بشعره. حدث هذا كله في لحظات قصيرة، بينما لم تتمكن هي من أخذ أي ردة فعل، وأخيرًا رأته وهو ينخرط بين جموع العائدين من الدوام، دون أن تبدو عليه أيّ من أمارات الحزن. كان يسير في خط مستقيم وبقامة منتصبة، في حين كانت تعتقد أنه على النقيض من ذلك تمامًا.

هروبه السريع من أمامها، جعلها تدرك أنه لم يكن يمزح معها، أحست بحشرجة شديدة وهي تتنفس، كصرير الرياح عندما تضرب حائطاً مغطى بالورق.

كتبت في 19–2–1993

صيف حار

((ما أيسر الحياة وأجملها عندما يكون لديكِ صديق، فإذا انتِ رغبتِ في مشاهدة فيلمًا سينمائيا، تجدين مَن يشتري عنكِ التذكرة، مَن يُعد لكِ البرقوق المجفف والزيتون وبكميات تكفي لعدة أيام، وبالتأكيد لا غنى عنهم أبدًا في رحلات السياحة والسفر، يدفعون عنكِ نفقات الطعام والشراب والإقامة، يحملون عنكِ هذا وذاك.. أو كما يقولون في عصرنا الحالي، الصديق بالنسبة لإحداهن بمثابة الجهة الراعية.))

قالت ون خونغ وعيناها لا تنزل من على جموع المارة في الشارع الضيق المزدحم.

في هذه الليلة من ليالي الصيف، وبعد أن أنهت لي بينغ حمامها وارتدت ملابس النوم، استلقت على السرير المصنوع من الخيزران، والذي كانت تنصبه في الشارع أمام باب مسكنها. وقد بدا الشارع الضيق في الأساس وكأنه ممر صغير، بعد أن اكتظ بسكانه الذين خرجوا يلتمسون نسمات الهواء في هذا الصيف الحار، أخرجوا إلى الشارع مختلف قطع الأثاث من الأسرة المصنوعة من البامبو، المقاعد وعدد غير قليل من الناموسيات، حتى كنت تستمع إلى أصواتهم التي بدت أشبه ما تكون بطنين النحل. امتلأ الشارع الضيق عن آخره، بدا للناظرين وكأنه حقل مغطى بالأعشاب الكثيفة. جلست لي بينغ على سريرها، ممسكة بمروحة يد، وإلى جوارها مروحة كهربائية صغيرة لا تتوقف عن مداعبة شعرها الطويل. بينما جلست ون خونغ إلى جوارها، وقالت لصديقتها:

((لقد رأيت أحد الرُعاة.))

((مَن؟)) قالت لي بينغ بينما كانت ترفع بكلتا يديها شعرها المنسدل إلى الخلف ترتبه.

((لي تشي قانغ.)) قالت ون خوانغ، واستطردت ((أناديه إلى هنا؟))

((تقصدي ذلك الأحمق لي تشي قانغ؟)) قالت لي بينغ ضاحكة.

((لقد انتبه إلينا.)) قالت ون خونغ.

((تقصدي أنه في الطريق إلينا؟)) سألت لي بينغ.

((نعم إنه يقترب منا؟)) قالت ون خونغ وهي تهز رأسها مؤكدة.

((لقد طاردني هذا الأحمق.)) قالت لي بينغ.

((وطاردني أنا أيضا.)) قالت ون خونغ وهي تحاول أن تخفض صوتها.

ضحكت المرأتان بصوت مسموع. بينما دنا منهما لي تشي قانغ والابتسامة تعلو وجهه، قبل أن يباغتهما بالسؤال:

((ما كل هذه السعادة؟))

بالغتا في الضحك بصوت أكثر ارتفاعا، وانحنت إحداهن من كثرة الضحك حتى كادت تسقط على الأرض، بينما احتضنت الثانية قدميها وهي مستلقية على سرير الخيزران. فيما كان لي تشي قانغ يقف إلى جوارهما محافظًا على وقاره وابتسامته، كان يرتدي تيشرت نصف كم وبنطلون، وينتعل حذاء لامعا. مسح العرق المتصبب من جبينه براحة يده، ثم قال:

((الجميع ينظر إليكما.))

توقفتا عن الضحك، راحتا تنظران حولهما، حتى استقرت عيونهما على نفر من الناس ينظرون في

اتجاههما. اعتدلت ون خونغ في جلستها، وراحت تزيح شعرها إلى الخلف ترتبه. ثم نظرت إلى صديقتها لي بينغ التي كانت مستلقية على سرير الخيزران، فإذا بها تجدها في وضعية الجلوس، منشغلة بشد قميصها على ركبتيها. فقال لي تشي قانغ:

((يجب أن تقصرا شعركما.))

نظرتا إليه قبل أن تتبادلان النظرات فيما بينهما، بينما استطرد لي تشي قانغ:

((تقصراه تقصيراً يتشابه مع قصات الرجال.))

ردت ون خونغ وهي تمسح على شعرها:

((أنا شخصياً معجبة بقصة شعري.))

((وأنا أيضاً تعجبني قصة شعركِ.)) قالت لي بينغ موجهة كلامها لصديقتها.

ثم قالت ونغ خونغ وهي تنظر إلى شعر صديقتها:

((أين قصصتِ شعركِ؟))

((في إي خونغ، صالون إي خونغ بشارع جونغ شان)). قالت لي بينغ.

((تبدو قصة جميلة جدا، تشبه القصات الأوربية المعروفة.)) قالت ون خونغ.

هزت لي بينغ رأسها مؤكدة، ثم قالت:

((رأيت هذه القصة بإحدى المجلات الأجنبية، مجلة باللغة الإنجليزية ليس بها كلمة صينية واحدة، ورأيت بنفس المجلة قصة شعركِ هذه، وقد كنت ساعتها أرغب في قصة مثل قصتك. والتي أرى أنها تناسب شكل وجهك.))

((هذا ما قالته لين جينغ وصديقاتي الأخريات.)) قالت ون خونغ وهي تمسح على شعرها بكلتا يديها.

وما أن رأى لي تشي قانغ المرأتان تنشغلان عنه بالحديث إلى بعضهما البعض، دون أن تعيراه أدنى اهتمام، حتى قاطعهما قائلا:

((لا زلت أفضل القصة الشبيهة بقصة الرجال، وأرى أنها ستكون مناسبة أكثر في هذا الصيف الحار، فالشعر الطويل قد..))

لم تنتظره ون خونغ حتى يكمل كلامه، قبل أن تقاطعه وتسأله بشيء من السخرية:

((ألا تشعر بالحر وأنت ترتدي هذا البنطلون؟))

أخفض لي تشي قانغ رأسه يدقق النظر في البنطلون، قبل أن يرد:

((هذا البنطلون مصنوع من الصوف، ولا أشعر بالحر وأنا أرتديه.))

فقالت ون خونغ وقد كادت أن تصرخ في وجهه:

((ترتدي بنطلونا مصنوع من الصوف؟))

((نعم صوف بنسبة 90%)) قال لي تشي قانغ وهو يهز رأسه مؤكدا.

((بل ويقول بأنه صوف بنسبة 90%)) قالت ون خونغ وهي تنظر إلى لي بينغ.

انفجرت المرأتان ضاحكتين، بينما اكتفى لي تشي قانغ بالنظر إليهما والابتسامة لا تفارق وجهه، اعتدلت لي بينغ في جلستها على السرير، وسألته:

((ولماذا لم تشترى واحداً صوف بنسبة 100%؟))

جلس لي تشي قانغ إلى جوارهما، وأخذ يفك رباط حذائه، بدأ بقدمه اليسرى التي حررها من الحذاء ورفعها على سرير لي بينغ، ثم قال وهو يشير إلى الخط البارز في رجل البنطلون المكوي بصورة جيدة:

((هل انتبهتما إلى هذا الخط المستقيم؟ إذا كان البنطلون صوف بنسبة 100% فلن يكون هناك أثر لهذا الخط.))

((بإمكانك أن تقوم بكي البنطلون جيداً حتى تحصل عليه.)) قالت لي بينغ.

((نعم بإمكاني كيه، ولكن سيختفي الخط بعد عشر دقائق من ارتداء البنطلون. فالبنطلونات المصنوعة من الصوف بنسبة 100% ليست مريحة.)) قال لي تشي قانغ وهو يهز رأسه نافياً.

مدت ون خونغ يدها ومسحت على بنطلون لي تشي قانغ، قبل أن تقول:

((ترتدي مثل هذا البنطلون السميك، من المؤكد أنك ستشعر بالحر حتى وإن كان صوف بنسبة 90%.))

ثم سألت صديقتها لي بينغ: ((ما رأيك يا لي بينغ؟))

((نعم إنه يبدو سميك جداً من الوهلة الأولى، حتى أنني كنت أعتقد أنك ترتدي بنطلونا من القطن الخالص.)) قالت لي بينغ.

فضحكت ون خونغ بصوت مرتفع، وقالت:

((أما أنا فكنت أحسبه من.....))

مبتسما أنزل لي تشي قانغ قدمه من على سرير لي بينغ، دسها في حذائه اللامع، ثم انحنى يربط رباط الحذاء، ثم قال:

((مقارنة بملابس هؤلاء، فإنه بالطبع..))

ثم قال وهو يشير إلى مجموعة من الشباب الذين كانوا يرتدون الشورت القصير.

((مقارنة بما يرتديه هؤلاء، فإنني بالتأكيد سأشعر ببعض الحر، فالبنطلون على أي حال أكثر حرارة من الشورت.))

وأمسك بطرف بنطلونه يهزه، كمن يهوي بمروحة، واستطرد يقول:

((يقضي بعضهم الصيف كاملا مرتديا الشورت، عاري المنكبين، منتعلا ((الشبشب))، وليس عليهم في ذلك حرج، أما نحن كبار موظفي الهيئات الحكومية فلا يمكن أن نفعل ذلك، حيث نهتم كثيرا بالمظهر، وأناقة ونظافة الملبس.))

أخرج لي تشي قانغ من جيبه منديلا، وراح يمسح عرق جبينه، فيما كانت ون خونغ ولي بينغ تنظران إلى بعضهما البعض، وتبتسمان خلسة، قبل أن تسأله ون خونغ:

((وإلى أين تم نقل الهيئة الثقافية التي تعمل بها؟))

((إلى معبد تيان نينغ.)) أجاب لي تشي قانغ.

((تم نقلكم إلى معبد!)) صاحت ون خونغ.

هز لي تشي قانغ رأسه مؤكداً، وقال:

((ذلك المبنى جوه منعش ورائع جدا في فصل الصيف.))

((وماذا عنه في الشتاء؟)) سألت لي بينغ.

((في الشتاء.. يكون باردا جدا.)) أجاب لي تشي قانغ بكل صراحة.

((ولماذا لا تقوم هيئة الثقافة بتأسيس مبنى جديد وضخم، على غرار مباني الهيئات المالية والتجارية والصناعية؟)) قالت ون خونغ.

((يعوزها الدعم المادي، فنحن أفقر هيئة حكومية على الإطلاق.)) قال لي تشي قانغ.

((إذن فأنت من أفقر موظفي الهيئات الحكومية، أليس كذلك؟)) سألت ون خونغ.

((ليس بهذه الصورة.)) قال لي تشي قانغ الابتسامة تعلو وجهه.

((حتى وإن كان الأمر كذلك، فهو على كل حال من موظفي الهيئات الحكومية، والذين يتمتعون بمكانة أفضل منا بكثير.)) قالت لي بينغ.

((أليس كذلك؟)) سألت لي بينغ لي تشي قانغ.

ابتسم لي تشي قانغ ابتسامة مشفوعة بالتواضع، ثم قال للمرأتين:

((لا يمكن القول بأننا نتمتع بمكانة أفضل منكما، كل ما في الأمر أن العمل بالهيئات الحكومية يعطي بعض الهيبة والوقار.))

ضحكت المرأتان بصوت مسموع، قبل أن يعاود الحديث حول قصة شعرهما، فقال مقترحا:

((أرى أنه يجب أن تقوما بتقصير شعركما.))

أطلقت المرأتان ضحكة مجلجلة، لكن لي تشي قانغ لم يهتم بذلك، وتابع يقول:

((على أن يكون نفس قصة شعر خونغ خوا.))

((قصة شعر مَن؟)) سألت ون خونغ.

((خونغ خوا، النجمة الغنائية خونغ خوا.)) أجاب لي تشي قانغ.

فصدرت عنهما في نفس اللحظة آهة اقرب للصيحة، ثم قالت لي بينغ:

((لا أعتقد أن قصة شعرها مميزة لهذه الدرجة.))

((وجهها طويل جدا.)) قالت ون خونغ.

((سأسافر بعد شهر إلى شنغهاي لاستدعائها إلى هنا.)) قال لي تشي قانغ والابتسامة تعلو وجهه.

أصابهما شيء من الذهول، قبل أن تسأله ون خونغ بعد لحظات:

((خونغ خوا سوف تأتي إلى هنا؟))

((نعم.)) هز لي تشي قانغ رأسه بالإيجاب وبثقة.

((ستأتي لإحياء حفل غنائي؟)) سألت لي بينغ.

((وسيكون سعر أعلى تذكرة خمسين يوانا، وأقل سعر للتذكرة ثلاثين يوان.)) قال لي تشي قانغ وهو يهز راسه مؤكدا.

لمعت عيناهما بتطلع، ثم قالتا:

((إذن عليك أن تشتري لنا تذكرتين.))

((لا توجد أدني مشكلة، فأنا المسئول عن كافة ترتيبات الحفل، وسيكون من السهل جداً الحصول على تذكرتين لكما.)) قال لي تشي قانغ.

((إذن، لتهدنا تذكرتين.)) قالت لي بينغ.

((بالتأكيد، فسيكون بحوزتك عدد كبير من التذاكر، لتهدنا باثنتين.)) قال ون خونغ تؤكد على كلام صديقتها.

فتردد لي تشي قانغ قليلاً قبل أن يقول:

((حسناً، لكما ما طلبتما.))

ضحكتا معاً، ثم قالت لي بينغ وهي تضحك:

((يجب أن تكون من فئة خمسين يواناً.))

((بالتأكيد، فلن نرضى بأقل من ذلك.)) قالت ون خونغ.

((نعم، فلا يمكن أن نرضى بأن نجلس في الصف الأخير، وبالتالي لن نتمكن من رؤية وجه خونغ خوا بوضوح.)) قالت لي بينغ.

تردد لي تشي قانغ مرة ثانية، قبل أن يمسك بالمنديل ويمسح عرق جبهته ويقول:

((سأحاول أن أهديكما تذكرتين فئة خمسين يواناً.))

((دعك من المحاولات، فهذا لا يناسب موظف كبير في مركزك.)) قالت ون خونغ.

((نعم، وإنه لمن السهل جدا بالنسبة لموظف كبير في مكانتك وهيبتك، أن يحصل على تذكرتين أعلى فئة.)) قالت لي بينغ تؤكد كلام صديقتها.

فكر لي تشي قانغ لدقائق بجدية، ثم قال:

((اتفقنا، سأهديكما تذكرتين فئة خمسين يوانا.))

صاحت المرأتان من فرط السعادة، بينما نظر لي تشي قانغ في ساعة يده والابتسامة لا تفارق وجهه، وأخبرهما بأنه يريد الاستئذان للارتباط بموعد هام، وقفتا وودعتاه لخطوات، وما أن أبتعد لي تشي قانغ عن مسكنهما، حتى همستا إلى بعضهما البعض:

((هذا الأحمق)).

ثم ضحكتا بصوت مسموع، قبل أن تقول ون خونغ:

((حقاً يا له من رجل أحمق.))

((أحمق ولكنه يفيد في بعض الأحيان.)) قالت لي بينغ.

عاودتا الضحك بصوت مسموع، ثم سألت ون خونغ صديقتها بصوت خافت:

((ومتى طاردك هذا الأحمق؟))

((العام الماضي)) قالت لي بينغ، وتابعت ((وأنتِ؟))

((وأنا أيضاً العام الماضي.))

لم تتمالكا أنفسهما من الضحك بصوت مرتفع، ثم سألت ون خونغ:

((وكيف كانت مطاردته لكِ؟))

((اتصال تليفوني)) قالت لي بينغ، واستطردت ((اتصل بي وتواعدنا أن نلتقي عند مدخل هيئة الثقافة، وكان قد أخبرني أن هناك نشاطا ثقافيا في ذلك اليوم، تدريب على الرقص لأحد معلمين الرقص من شنغهاي، وأننا سوف نشارك لتعلم الرقص..))

((ولكن معلم الرقص لم يأت.)) قالت ون خونغ.

((وكيف عرفتِ ذلك؟))

((لأنه واعدني نفس الموعد ولنفس السبب.))

((ثم طلب أن تتمشيان معاً، أليس كذلك؟))

((نعم.)) قالت ون خونغ، ثم سألت صديقتها: ((وهل تمشيتِ معه؟))

((لدقائق معدودة، ثم سألته عن إذا ما كنا سنذهب إلى حصة الرقص، فقال أنه لا توجد حصة رقص من الأساس، وأنه واعدني لكي نتمشى معا، فسألته عن غرضه من ذلك.))

((فأخبرك أنه لأجل التعارف، أليس كذلك؟)) سألتها ون خونغ.

هزت لي بينغ رأسها مؤكدة، ثم سألت صديقتها:

((وهذا ما قاله لكِ، أليس كذلك؟))

((نعم)) قالت ونغ خونغ، وتابعت ((وقد سألته عن الغرض من هذا التعارف.))

((وكان هذا نفس سؤالي له.))

((فأجاب بأنه يرغب في إقامة صداقة معي، فسألته عن نوعية هذه الصداقة.))

وهنا تدخلت لي بينغ وقالت: ((فارتبك وتلعثم.))

((بالضبط)) قالت ون خونغ، واستطردت ((ووضع يده على فمه قبل أن يقول..))

((لنر إذا ما كان بإمكاننا إقامة علاقة عاطفية.)) قالت لي بينغ محاولة تقليد لهجة لي تشي قانغ.

انفجرت المرأتان في الضحك بصوت مرتفع، حتى أوشكتا أن تسقطا أرضا من شدة الضحك، بقيتا على هذه الحالة لمدة خمس أو ست دقائق، قبل أن تقول لي بينغ:

((ما أن سمعته يتحدث عن الحب، حتى سيطرت علىّ حالة شديدة من الخوف والقلق.))

((أما أنا فشعرت بشعور غريب وكأن مخالب قط شرس انغرست في لحمي.))

عاودتا الضحك بصوت مرتفع، ثم سألت ون خونغ صديقتها:

((وكيف كان ردك؟))

((قلت أنني أرغب في العودة إلى البيت.))

((لقد كنتِ لطيفة معه))، وتابعت ون خونغ ((أما أنا فقد قلت له: (نجوم السماء أقرب لك).

عند غروب شمس أحد الأيام بعد مرور أكثر من شهر، زارت ون خونغ صديقتها لي بينغ، فإذا بها تجدها تقف أمام المرآة تتزين، وكانت قد انتهت للتو من تسريح شعرها، وبدأت في تحديد حواجبها، فتحت لي بينغ الباب لصديقتها ون خونغ وهي تمسك بقلم رسم الحواجب، وما أن رأتها ون خونغ على تلك الحالة حتى عاجلتها بالسؤال:

((تستعدي للخروج؟))

هزت لي بينغ رأسها مؤكدة، ثم عادت وجلست أمام المرآة، وقالت لصديقتها:

((لمشاهدة فيلم سينمائي.))

((مع مَن؟)) سألتها ون خونغ بحذر.

اكتفت لي بينغ بالرد على صديقتها برسم ابتسامة على وجهها، دون أن تنطق بكلمة واحدة، فصاحت بها ون خونغ:

((لديكِ صديق.. مَن هو؟))

((دقائق معدودة وستعرفين.)) قالت لي بينغ.

((وهو كذلك))، قالت ون خونغ وقد ضربت على كتف صديقتها ضربة خفيفة، قبل أن تقول ((تخفين عني مثل هذا الخبر السار.))

((ألم أخبرك به الآن؟)) قالت لي بينغ.

((إذن سأنتظر لكي أتعرف عليه.))

جلست ون خونغ على الأريكة المجاورة، وراحت تطالع صديقتها وهي تتزين، قبل أن تقول لي بينغ وهي تضع أحمر الشفاه:

((هذه النوعية المستوردة من أحمر الشفاه جيدة جدا.))

قالت ون خونغ وقد بدا أنها تذكرت شيئا ما:

((التقيت صباح اليوم لي تشي قانغ، وكان يرتدي رابطة عنق مستوردة، رابطة عنق جميلة جدا..))

((أهدته إياها النجمة الغنائية المعروفة خونغ خوا.)) قالت لي بينغ.

((نعم، لقد أخبرني أنها جاءته هدية من النجمة خونغ خوا))، قالت ون خونغ، ثم سألت لي بينغ بحذر:

((ولكن كيف عرفتِ ذلك؟))

((أخبرني بذلك لي تشي قانغ.)) قالت لي بينغ وهي تمسح بكلتا يديها على وجهها برفق.

ضحكت ون خونغ، وقالت:

((وهل تعلمين أن خونغ خوا تحب لي تشي قانغ؟))

رأت ون خونغ صديقتها لي بينغ تهز رأسها بالإيجاب بينما تقف أمام المرآة، فسألتها:

((فهل علمتِ بذلك؟))

((نعم أعلم.)) قالت لي بينغ.

((وهو الذي أخبركِ بنفسه؟))

((بالضبط.))

((آهٍ منك يا لي تشيي قانغ..)) ثم تابعت ون خونغ تقول ((يطلب مني ألا أخبر أحدا بهذا الخبر، ثم يذهب هو لنشره بين الكثيرين.))

((لم يخبر به الكثير من الناس، ألا ترين أنه أخبرنا نحن الاثنتين فقط؟)) قالت لي بينغ تدافع عن لي تشي قانغ.

((ومَن يدري!)) قالت ون خونغ متعجبة.
ثم وقفت لي بينغ، وأخذت تقيس التنورة الملقاة على السرير، وون خونغ إلى جوارها، فسألت لي بينغ:
((ما رأيكِ؟))
((جميلة جداً.)) قالت ون خونغ. ثم سألت صديقتها:
((وإلى أي حد أخبرك عن هذا الموضوع؟))
((ماذا؟))
((أقصد حكايته مع النجمة خونغ خوا.))
((لمحة بسيطة.)) قالت لي بينغ.
راحت ون خونغ تتابع حركة صديقتها أمام المرآة، قبل أن تسألها ثانية:
((وهل تعلمين أنه قضى معها ليلة في الفندق؟))
وما أن سمعت لي بينغ سؤال صديقتها، حتى استدارت فجأة، ثم قالت وهي تنظر إلى ون خونغ:
((حتى هذه التفاصيل لم يخفها عنكِ.))
((نعم.)) قالت ون خونغ مزهوة، قبل أن تنتبه فجأة إلى أمرٍ ما، فسألت صديقتها في الحال:
((وهل أخبركِ أيضا بهذا الأمر؟))
انتبهت لي بينغ إلى تغير ملامح ون خونغ، فاستدارت ثم قالت بلامبالاة:
((أنا التي سألته.))
فقالت ون خونغ وعلى وجهها ابتسامة خفيفة:
((أما أنا فلم أسأله، هو الذي أخبرني بنفسه.))
أخفضت لي بينغ رأسها وابتسمت خلسة، بينما مدت ون خونغ على مسند الأريكة، وقالت لصديقتها:
((يبدو أن لي تشي قانغ رجل جذاب، أليس كذلك؟))
((نعم.)) قالت لي بينغ، وأضافت ((وهذا ما جعل نجمة جميلة ومعروفة مثل خونغ خوا تقع في غرامه، أليس كذلك؟))
هزت ون خونغ رأسها مؤكدة، ثم سحبت يدها من على مسند الأريكة ووضعتها على صدرها، وقالت:
((وإن كانت خونغ خوا ليست جميلة في واقع الأمر، فهي من بعيد تبدو جميلة، ولكن ما أن تقتربي منها حتى تجدي غير ذلك.))
((ومتي اقتربت منها؟))
((لم يحدث من قبل. لي تشي قانغ أخبرني بذلك)). قالت ون خونغ.
وهنا تغيرت ملامح لي بينغ، فسألت صديقتها:
((ماذا قال لكِ؟))
فقالت ون خونغ وقد ارتسمت على وجهها سعادة كبيرة:
((قال إن خونغ خوا ليست أجمل مني.))

((ليست أجمل منكِ؟))

((نعم ليست أجمل منا.)) أضافت ون خونغ.

((منا؟))

((أنا وأنت.))

((ولكن هذا ليس كلامك من البداية.))

فنظرت ون خونغ إلى صديقتها لي بينغ وهي مندهشة، وقالت:

((غضبتِ؟))

((إطلاقا.)) رسمت لي بينغ على وجهها ابتسامة سريعة مصطنعة، ثم استدارت وجعلت تنظر إلى نفسها في المرآة، وأخذت تحك عينيها بيدها اليسرى.))

((أقاما معا ليلة في الفندق، فماذا تعتقدي أن يكون قد وقع بينهما؟)) تابعت ون خونغ تسأل لي بينغ.

((لا أعرف.)) قالت لي بينغ، ثم سألتها ((ألم يخبرك بهذا أيضا؟))

((لم يفعل.)) ردت ون خونغ بطريقة ماكرة.

((ومن المحتمل أنه لم يحدث بينهما شيء.)) قالت لي بينغ.

((كلا. لقد احتضنا بعضهما البعض.)) قالت ون خونغ.

((خونغ خوا هي التي احتضنته.)) قالت لي بينغ في الحال.

وقفت الصديقتان في حالة من الذهول، وجعلتا تنظران إلى بعضهما البعض، قبل أن تبادر لي بينغ بالضحك، لتضحك معها ون خونغ، ثم جلست لي بينغ على المقعد، وهنا دق الباب، وفي اللحظة التي أوشكت فيها لي بينغ على النهوض لفتح الباب، قالت ون خونغ:

((سأفتح أنا.))

هرعت ون خونغ لتفتح الباب، وما أن فتحته حتى باغتها الشاب الأنيق لي تشي قانغ، والذي كان يقف أمام الباب والابتسامة تعلو وجهه. وبدا أن لي تشي قانغ لم يكن يتوقع أن التي ستفتح الباب هي ون خونغ، فأصابه الذهول للحظات، قبل أن يطل برأسه إلى الداخل، فقالت لي بينغ وهي تدنو من الباب:

((تبدو أنيقا جدا.))

وما أن سمعت ون خونغ تعليق لي بينغ حتى ضحكت بصوت مرتفع، ثم تسللت لي بينغ من جوارها إلى خارج الغرفة، وسحبت معها مقبض الباب، حتى وجدوا أنفسهم في الشارع.

وقف الثلاثة في الشارع الضيق، وأمسكت لي بينغ بذراع لي تشي قانغ، بينما سأل لي تشي قانغ ون خونغ:

((هل يوجد معكِ تذكرة سينما؟))

هزت ون خونغ رأسها بالنفي، ثم قالت:

((لا.))

هذا بينما كانت لي بينغ متعلقة بذراع لي تشي قانغ، وما أن تقدما خطوتين إلى الأمام، حتى التفتت لي بينغ إلى صديقتها ون خونغ قائلة:

((ون خونغ، نستأذنك الآن للانصراف، وننتظر زياراتك الكثيرة.))

هزت ون خونغ رأسها بالإيجاب، أخذت تتابعهما حتى ابتعدا عنها مسافة عشرين متر تقريباً، ثم استدارت وسارت في الاتجاه الآخر، سارت بضع خطوات، ثم ندت عنها ((آهة)).

كتبت في 1993/4/18

الزائدة الدودية

كان أبي يعمل فيما مضى جراحاً، كان يتمتع ببنية قوية، وصوت جهوري، كان بمقدوره أن يقف أمام طاولة العمليات الجراحية أكثر من عشر ساعات متواصلة، دون أن يشعر بتعب أو إرهاق، قبل أن يعود إلى بيته وقدماه تصطكان. كان ما أن يصل إلى مدخل البيت، حتى يقترب من الجدار ويبول عنده، كنت تستمع لصوت بوله يضرب الجدار محدثاً صوتا مسموعاً، كصوت الأمطار الرعدية حينما تضرب ذات الجدار.

وكان أبي قد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره، من عاملة جميلة بأحد مصانع النسيج، وفي العام الثاني من الزواج، أنجبت له زوجته ابناً، والذي هو أخي الأكبر، وبعد مرور عامين آخرين، أنجبت له زوجته ابناً ثانيا، والذي هو أنا.

أذكر أنني عندما بلغت الثامنة، استطاع ذلك الجراح الذي يتمتع بصحة جيدة وذهن يقظ، استطاع وسط مشاغله التي لا تنتهي أن يسرق له ولعائلته يوم إجازة، قضى فترة الصباح منه نائماً، وفي عصر نفس اليوم، أصطحب ابناه وساروا على الأقدام مسافة 2.5 كم، قضوا وقتاً جميلاً على الشاطئ قرابة الثلاث ساعات، وفي طريق العودة، كان الطبيب يحمل أحدهما على كتفيه، بينما يحتضن الثاني. وما أن انتهوا من تناول وجبة العشاء، حتى حل الظلام، فجلس هو و زوجته وابناهما تحت شجرة ((الاستركوليا الوردية)) عند مدخل البيت، وقد سطع ضوء القمر على أوراق الشجرة لينعكس على أجسادهم، مع هبوب رياح باردة منعشة.

استلقى الطبيب على سرير مصنوع من أعواد الخيزران وضع هنالك بشكل مؤقت، بينما جلست زوجته إلى جواره على مقعد من الخيزران، فيما جلس الطفلان –أخي الأكبر وأنا– على مقعد خشبي طويل، وأنصت الجميع إلى حديث والدنا الجراح عن الزائدة الدودية التي لا تخلو منها معدة إنسان. ذكر أنه يقوم يومياً باستئصال ما لا يقل عن عشرين زائدة دودية، وأن أسرع عملية استئصال زائدة أجراها انتهت في خمس عشرة دقيقة فقط، نجح خلالها في استئصال الزائدة الدودية من معدة أحدهم. فسألناه:

((وماذا بعد الاستئصال؟))

((بعد الاستئصال؟)) قال أبي وهو يشوح بيده ((نتخلص من الزائدة.))

((ولماذا تتخلصون منها؟))

((لأنها لا فائدة لها.)) قال أبي.

((وما هي وظيفة الرئتين؟)) سأل أبي.

((التنفس.)) أجاب أخي الأكبر.

((وماذا عن المعدة؟ ما هي وظيفة المعدة في جسم الإنسان؟))

((المعدة، وظيفة المعدة الرئيسية هضم الأطعمة التي تدخل إلى الجسم.)) أجاب أخي الأكبر أيضاً.

((والقلب؟))

((وظيفة القلب النبض.)) بادرت أنا هذه المرة بالإجابة على سؤال أبي.

فنظر إليّ أبي وقال: ((إجابتك صحيحة، لقد أحسنتما أنتما الأثنين، فالرئتين والمعدة والقلب، وكذلك الاثنا

عشر والقولون والأمعاء الغليظة والمستقيم جميعها أعضاء لها فوائد كثيرة في الجسم، فماذا عن الزائدة الدودية....هل تعرفان فائدة الزائدة الدودية في جسم الإنسان؟))

((الزائدة عديمة الفائدة.)) قال أخي الأكبر وهو يحاكي طريقة أبيه في الحديث.

ضحك أبي بصوت عال، ثم ضحكت معه أمي التي كانت تجلس إلى جواره، قبل أن يضيف أبي:

((نعم الزائدة عديمة الفائدة. فليس لها أدنى علاقة بعمليتي التنفس والهضم وكذلك النوم، كذلك ليس لها علاقة بما تقومون به من التجشؤ وخروج الريح وغيرها مما يحدث في الجسم...))

وما أن سمعنا حديث أبي عن التجشؤ وخروج الريح، حتى ضحكت أنا وأخي، وعندها اعتدل أبي في جلسته وقال بلهجة جادة:

((ولكن في حالة حدوث التهاب الزائدة الدودية، يصاحبه ألم شديد في البطن، وفي حالة حدوث ثقب بالزائدة، فإنه قد يؤدي إلى التهاب جدار المعدة، وهو ما قد يودي بحياتكما، يودي بحياتكما، هل تفهمان ما أقول؟))

((أي نموت.)) هز أخي الأكبر رأسه يؤمن على قوله.

وما أن سمعت حديثهم عن الموت، حتى انقبض قلبي من شدة الخوف، فانتبه أبي إلى ذلك، فمد يده يمسح على رأسي ويقول:

((إن عملية استئصال الزائدة الدودية هي في واقع الأمر تدخل جراحي بسيط، ولا تكون هناك خطورة على المريض طالما لم يحدث ثقب في الزائدة...ويذكر أن جراح بريطاني...))

تمدد أبي على سرير الخيزران، فعرفنا أنه يستعد ليقص علينا حكاية من حكاياته. أغمض عيناه وتثاءب، ثم استدار ناحيتنا. وقال إن ذلك الجراح البريطاني كان قد سافر ذات مرة إلى جزيرة ما، لم يكن بها مستشفى أو طبيب أو حتى حقيبة إسعافات أولية، في الوقت الذي أصيب فيه الطبيب بالتهاب الزائدة الدودية. رقد الطبيب تحت شجرة جوز هند، وظل يتألم صبيحة ذات اليوم، وكان يعلم أنه إذا تأخر في إجراء عملية استئصال الزائدة الدودية، فإنه سوف يحدث ثقب بالزائدة...

((وماذا سيحدث في حالة الإصابة بثقب في الزائدة؟)) سأل أبي وهو يعتدل في جلسته.

((سيموت.)) قال أخي.

((سيصاب بالتهاب جدار المعدة، ثم يموت.)) قال أبي مصححاً.

((فلم يجد الطبيب البريطاني بداً إلا أن يقوم بإجراء العملية لنفسه، فكان أن طلب من شخصين من سكان الجزيرة المحليين أن يساعدوه في حمل مرآة كبيرة، جعل ينظر إلى نفسه في المرآة، ثم بدأ في...)) قال أبي.

((وهنا أحدث فتحة في جدار البطن، وفصل الجلد والدهون، ثم أدخل يده وأخذ يبحث عن الأعور حتى وجده، وعندها وجد الزائدة الدودية...))

كنا نستمع لحكاية الطبيب البريطاني الذي قام بإجراء عملية جراحية لنفسه بذهول شديد، بينما نحدق في أبي ونحن في غاية الإثارة، قبل أن نسأله إذا كان بإمكانه أن يقوم هو بإجراء عملية لنفسه مثل هذا الطبيب البريطاني.

((هذا يتوقف على الظرف الذي سأكون فيه آنذاك، فإذا حدث وأصبت بالتهاب الزائدة الدودية وأنا في تلك الجزيرة، فإنني سأقوم بإجراء العملية لنفسي لأنقذ حياتي.)) قال أبي.

وقد أشعلت إجابته حماسنا، فقد كنا نعتقد دائماً أنه أكثر الأطباء شجاعة وأفضلهم مهارة، وهكذا أكدت إجابته أكثر على ثقتنا فيه، بل وساعدتنا على أن نواجه أصدقائنا بكل ثقة ونفخر بأن:

((والدنا بإمكانه أن يجري لنفسه عملية جراحية...)) قال أخي الأكبر وهو يشير إليّ، قبل أن يضيف ((وساعتها نساعده نحن الاثنين في حمل المرآة...))

بعد مرور أكثر من شهرين، وفي خريف ذات العام، أصيب أبي فجأة بالتهاب الزائدة الدودية. كان ذلك صباح أحد أيام الآحاد، بينما خرجت أمي إلى عملها بمصنع النسيج، وقد تصادفت عودة أبي من ورديته الليلية، مع خروج أمي إلى عملها صباحاً، فقال لها عند مدخل البيت:

((لم أذق طعم النوم ليلة أمس، أجريت عملية ارتجاج في المخ، عمليتي هشاشة عظام وعملية تسمم بالبنسيلين، لقد نال مني التعب، حتى أنني أشعر ببعض الألم في معدتي.))

بعدها دخل أبي واستلقى على السرير وهو يضع يده على صدره، بينما كنت أنا وأخي الأكبر في الغرفة المجاورة، فما كان منا إلا أن نقلنا طاولة الطعام ووضعناها فوق أحد المقاعد، ثم رفعنا المقعد فوق الطاولة، وهكذا أمضينا من ثلاثة إلى أربع ساعات في نقل وتغيير موضع الطاولة والمقعد. هذا بينما كنا نستمع إلى صوت أبي وهو يتألم داخل غرفته، فاقتربنا من باب الغرفة نتأكد من الصوت، حتى سمعناه ينادي علينا، فدفعنا الباب ودخلنا إليه، فإذا به ينام على السرير في وضعية أقرب ما تكون إلى شكل واحدة الجمبري، وأخذ ينظر إلينا وهو يتلوى من شدة الألم، ويصرخ:

((آه من ألم الزائدة...آه... ألم شديد جداً...التهاب الزائدة الحاد، اسرعوا إلى المستشفى واستدعوا الطبيب تشن... أو حتى الطبيب وانغ...هيا بسرعة..))

سحبني أخي الأكبر وهبطنا الدرج، خرجنا من باب البيت ومنه إلى الزقاق، وعندها عرفت أن الألم الذي يعاني منه أبي هو التهاب الزائدة الدودية، بينما كان أخي الأكبر يسحبني من يدي في طريقنا إلى المستشفى، لاستدعاء الطبيب تشن أو وانغ، ولكن ماذا سيفعلان إذا عدنا بهما؟

وما أن تذكرت الالتهاب الذي يعاني منه أبي، حتى تسارعت دقات قلبي، ومضيت أفكر في أنه طالما تطورت حالته إلى درجة الالتهاب الحاد، فليس أمامه إلا أن يجري لنفسه عملية استئصال الزائدة الدودية، وسنساعده أنا وأخي في حمل المرآة.

وبينما كنا نسير في الزقاق، توقف أخي فجأة وقال:

((لا يمكن أن نستدعي الطبيب تشن أو وانغ؟))

((لماذا؟)) سألته.

((لتفكر معي، إذا عدنا بهما، فإنهما سيقومان بإجراء العملية لوالدنا.))

هززت رأسي بالتأكيد على كلامه، فتابع هو يسألني: ((ألم تفكر في أن نجعل والدنا يقوم بإجراء العملية لنفسه؟))

((هذا ما أتمناه.)) قلت.

((لذلك لا يمكن أن نستدعي الطبيب تشن أو الطبيب وانغ، علينا أن نتسلل إلى غرفة العمليات ونتحصل على أدوات الجراحة، ومرآة كبيرة، وهي بالفعل موجودة في المنزل...)) قال أخي.

((وهكذا يمكن أن يقوم والدنا بإجراء العملية لنفسه.)) صحت وأنا في غاية السرور.

دخلنا المستشفى في الوقت الذي كان جميع من فيها غادروا أماكنهم إلى المطعم لتناول الغداء، ولم يكن بغرفة العمليات أحد سوى ممرضة واحدة، فطلب مني أخي أن أتقدم إليها وأتحدث معها في أي شيء، فدنوت منها منادياً إياها بخالتي، وسألتها كيف أنها تبدو بهذا القدر من الجمال، فأخذت تضحك، بينما تمكن أخي الأكبر من سرقة أدوات الجراحة من داخل غرفة العمليات.

عدنا إلى البيت، وما أن سمع أبي وقع خطواتنا، حتى نادى بصوت خفيض:

((الطبيب تشن، الطبيب تشن، أم أنك الطبيب وانغ؟))

دخلنا عليه، فإذا بجبهته تتصبب عرقاً من شدة الألم. وما أن أنتبه إلي أن الداخل ليس الطبيب تشن أو حتى الطبيب وانغ، حتى سألنا بصوت سمعناه بالكاد:

((أين الطبيب تشن؟ كيف عدتما بدونه!))

طلب مني أخي الأكبر أن أفتح حقيبة أدوات الجراحة، بينما أتى هو بالمرآة الكبيرة التي كانت تستعملها أمي عندما تتزين، ولم يكن أبي يعلم حتى هذه اللحظة ما يدور ببالنا، فعاد يسأل:

((والطبيب وانغ، هو أيضاً لم يكن موجود بالمستشفى؟))

وضعنا أدوات الجراحة على يمين أبي، وصعدت أنا فوق السرير، حتى تمكنت أنا وأخي من رفع المرآة على السرير، وعندها مال أخي بجسده ونظر في المرآة ليتأكد من أن أبي سيكون بإمكانه رؤية نفسه بوضوح، ثم قلنا في صوت واحد:

((هيا بسرعة يا أبي.))

أمال أبي رأسه ناحيتنا، وأخذ ينظر إلينا وهو يلهث من شدة التعب، بينما لايزال يسألنا عن الطبيب تشن، والطبيب وانغ، فقلنا نستعجله:

((هيا يا أبي بسرعة، قبل أن يحدث ثقب في الزائدة.))

((ماذا... ماذا بسرعة؟)) سأل أبي بصوت ضعيف.

((هيا يا أبي لتقوم بإجراء العملية لنفسك.)) قلنا في صوت واحد.

وهنا فهم أبي قصدنا وما يدور ببالنا، فحدق فينا وأخذ يسبنا:

((حيوانان.))

أفزعتني ردة فعله، فلم أعرف ماذا أفعل، فجعلت أنظر إلى أخي الأكبر، فإذا به يبدو عليه الفزع أيضاً، وأخذ ينظر إلى أبي، الذي كان يتلوى من شدة الألم، حتى أنه لم يعد يقوى على الكلام، وأكتفى بأن يحدق فينا، وهنا اكتشف أخي السبب الذي جعل أبي يسبنا، فقال:

((إن أبي لم يخلع بنطاله بعد.))

فطلب مني أخي أن أمسك بالمرآة، وأخذ يخلع عن أبي بنطاله، فصفعه أبي صفعة على وجهه، وأخذ يسبه بما أوتي من جهد:

((حيوان.))

قفز أخي من على السرير من شدة الفزع، وسارعت أنا أيضاً بالنزول من جانب قدمي أبي، وبينما كان أبي يحاول أن يعبر عن غضبه الشديد تجاهنا بصوت ضعيف جداً، سألت أخي:

((ألا ترى أن أبانا لا يرغب في إجراء العملية لنفسه؟))

((لا أعلم.)) قال أخي.

وعندها انخرط أبي في البكاء، حتى سالت دموعه، وقال بصوت متقطع من شدة التعب:

((أبنائي الأحباء، هيا بسرعة...هيا بسرعة أذهبا لاستعجال أمكما... هيا بسرعة...))

كنت أتمنى أن يكون أبي بطلاً ويقوم بإجراء العملية لنفسه، ولكني أراه الآن يبكي. نظرت أنا وأخي إلى أبي والدموع تسيل من عينيه، ثم سحبني أخي من يدي وخرجنا من الغرفة، ونزلنا على الدرج في عجالة، وقطعنا الزقاق في عجالة شديدة... وفي هذه المرة لم نتصرف من أنفسنا، وذهبنا إلى حيث أمرنا وعدنا بأمي.

وعندما دخل أبي غرفة العمليات، كانت حالته قد تدهورت وأصيب بثقب وحدث انفجار للزائدة الدودية، ثم التهاب جدار المعدة، فرقد في المستشفى لأكثر من شهر، ثم فترة نقاهة في البيت لمدة شهر كامل، حتى عاد إلى عمله بالمستشفى وارتدى البالطو الأبيض ثانية، ولكن لم يعد هذه المرة إلى قسم الجراحة، لأنه فقد القوة والشجاعة التي كان يتميز بها من قبل، وأصبح يشعر بالدوار الشديد إذا وقف ساعة واحدة أمام طاولة العمليات. ثم خسر الكثير من وزنه، ولم يعد أمامه أمل لاستعادة وزنه ثانية، وفقد اتزانه في المشي، وكان لا يتعافى من الزكام طوال فصل الشتاء. فانتقل إلى قسم الأمراض الباطنة، وكان يقضي ساعات دوامه أمام المكتب يتحدث مع المرضى، ويصرف لهم الوصفات التي يكررها يومياً، ليعود بعدها إلى البيت ممسكاً ببعض القطن المبلل بالكحول، يمسح به يديه حتى يصل إلى البيت. وفي المساء، كنا نستمع إليه دائماً يلوم أمي قائلاً:

((كنت اعتقد أنني أنجبت منكِ ولدان، لكن اتضح أنهما مجرد زائدتين، ليس لهما أي فائدة تذكر، لقد كادا أن يقضيا على حياتي في أشد الأوقات التي احتجت فيها إليهما.))

كتبت في 1994/7/12

بدون اسم

ذات يوم، وبينما كنت أسير فوق الجسر حاملًا فوق ظهري سلة ممتلئة بالفحم، سمعتهم يتحدثون عن موت شيو آه سان صاحب الأنف البارزة، فأنزلت السلة من فوق ظهري، أمسكت بالمنديل المعلق في رقبتي، وجعلت أجفف به عرق جبيني، تحدثوا عن سبب موته، قالوا أنه مات بسبب تناوله لكمية من كعك العام الجديد. وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها أن كعك العام الجديد يسبب الوفاة، وإن كنت سمعت فيما مضى عن موت أحدهم بسبب تناول الفول السوداني. وأخيرا سمعتهم ينادونني:

((شيو آه سان.. شيو آه سان يا صاحب الأنف البارزة..))

((أوه.)) هكذا رددت وأنا مخفض الرأس، قبل أن ينفجر هؤلاء في الضحك، ويسألونني:

((ماذا تمسك في يدك؟))

نظرت إلى المنديل في يدي، ثم أجبت:

((منديلا من القطن.))

ضحكوا بصوت مرتفع، ثم سألوا:

((وماذا تفعل به؟))

((امسح به عرق جبيني.)) قلت.

لم أكن أعرف سبب تلك السعادة التي كانوا عليها، لقد بالغوا في الضحك حتى رأيتهم يتمايلون كأعواد القصب التي تهزها ريح شديدة، قبل أن يقول أحدهم وهو يعقد ذراعيه حول بطنه:

((هو.. أيضًا.. يعرف.. العرق.))

نادى عليّ آخر كان يتكأ على سياج الجسر قائلًا:

((شيو آه سان.. شيو آه سان يا صاحب الأنف البارزة..))

كرر النداء مرتين، وأنا رددت عليه مرتين، هذا قبل أن يعقد هو الآخر يديه حول بطنه ويسأل:

((مَن هو شيو آه سان؟))

نظرت إليه، ثم إلى رفاقه من حوله، فرأيتهم ينظرون إليّ وهم فاغرين أفواههم وأعينهم مفتوحة، قبل أن يسألونني في صوت واحد:

((مَن هو شيو آه سان صاحب الأنف البارزة؟))

((لقد مات شيو آه سان.)) هكذا أجبت.

عندئذ رأيت أعينهم التي كانت مفتوحة أغلقت في التو، بينما كانوا لايزالون فاغرين أفواههم، وقد انفجروا في الضحك بصوت أشد من صوت الطرق على الحديد، حتى أن اثنين منهم سقطوا على الأرض من شدة الضحك، وبعد أن أجهدهم كثرة الضحك على ما يبدوا، سألني أحدهم وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

((إذا كان شيو آه سان قد مات. فمَن أنت؟))

مَن أنا؟ نظرت إليهم وهم يضحكون سعداء كما يبدون لي، ولم أجد ما أقوله. فأنا بدون اسم، لكن ما أن أخرج إلى الشارع، حتي تصير لي أسماء كثيرة، فأحمل أي اسم ينادونني به. فإذا تصادف ووجدوني

أمامهم أعطس، ينادونني بالعطاس، وإذا رأوني بعد قضاء حاجتهم، ينادونني بورق الحمام، يشيرون إليّ بأيديهم لأدنوا منهم، يلوحون لي لأنصرف عنهم.. هذا إلى جانب أسماء اخرى كثيرة كالكلب والخنزير وقائمة طويلة من هذه الأسماء. فكما ينادونني أجيبهم، لأنني بدون اسم، كل ما عليهم أن يدنوا مني، ينظروا إليّ، ينادونني بأي اسم، وعندها ألبي النداء في الحال.

تذكرت أن أكثر الأسماء التي ينادونني بها قولهم: ((وي[6]!))

فأرد عليهم قائلا:

((أنا....وي!))

فيحدقون فيّ ويسألون:

((وماذا تكون؟))

أفكر في نفسي إذا ما كنت قد أخطأت، ثم أنظر إليهم، وألتزم الصمت. فيسألني أحدهم:

((ماذا تكون؟))

((أنا.. وي.)) أقول وأنا أهز رأسي بالنفي.

ينظرون إلى بعضهم البعض، ثم ينفجرون في الضحك، بينما أقف بعيدًا أراقبهم، قبل أن أجد نفسي أضحك كما يضحكون. وما أن يرانا القادمون من ناحية الجسر على هذه الحالة، حتى ينفجروا هم أيضًا في الضحك بصوت مرتفع. قبل أن يناديني أحدهم والذي كان يرتدي قميصًا مشجرًا قائلًا:

((وي!))

((أوه.)) أرد بسرعة.

ثم يشير صاحب القميص المشجر إلى أحدهم ويقول:

((هل ضاجعت زوجته؟))

((أوه.)) هززت رأسي بالإيجاب.

وما أن يسمعني آخر حتى يسبني:

((اللعنة عليك.))

ثم يشير هذا الرجل إلى صاحب القميص المشجر، ويقول لي:

((وهل أعجبتك؟))

((لقد ضاجعت زوجاتكم جميعًا.))

وما أن يسمعونني، حتى يتوقفوا عن الضحك، ويحدقون في بعض الوقت، ثم يقترب مني صاحب القميص المشجر، ويرفع يده عالية، ويصفعني صفعة قوية، تحدث طنينًا هائلًا في أذنيّ.

وعندما كان السيد تشن على قيد الحياة، كنت دائمًا ما أراه يقف داخل الصيدلية، ومن خلفه عدد كبير من الأدراج الصغيرة المفتوحة والمغلقة، وبيده ميزانًا صغيرًا. كان السيد تشن يمتلك يدان نحيفتان وطويلتان. وكان أحيانًا يقف عند مدخل الصيدلية، ويسمعهم ينادونني بمختلف الأسماء، وأنا أرد عليهم جميعًا، فإذا بي أسمعه يتحدث إليهم من مكانه عند مدخل الصيدلية ويقول:

((إنكم تقترفون إثما عظيما، بل وأراكم سعداء بما تفعلون، لتنتظروا عقاب السماء.. فأي إنسان على

وجه الأرض يحمل اسما، وهو كذلك، فاسمه: لاي فا..))

وما أن أسمع السيد تشن يقول بأن لي اسم، وأن اسمي: لاي فا، حتى ينتفض قلبي فجأة من فرط السعادة، وأتذكر عندما كان أبي لايزال على قيد الحياة، كان يجلس على عتبة الدار ويناديني:

((لاي فا، أحضر لي براد الشاي...لاي فا، ستكمل هذا العام الخامسة من عمرك.. لاي فا، هذه حقيبة المدرسة التي اشتريتها لك..لاي فا، لقد اكملت العاشرة ولاتزال في الصف الأول الابتدائي، اللعنة عليك.. لاي فا، دعك من التعليم، واعمل معي في نقل الفحم..لاي فا، بعد أعوام ستصير قويا وتحمل نفس حمولتي.. لاي فا، أباك أوشك على الموت، لقد أوشكت على الموت، وقال الطبيب أني مصاب بورم في الرئة.. لاي فا، حسبُك من البكاء، لاي فا، عندما أموت ستصير يتيما بلا أب أو أم.. لاي فا، فا، فا، لاي ، لاي، لاي..))

((لاي فا، لقد مات أباك.. اقترب وتحسس جسده المتصلب، إنه يحدق فيك..))

بعد موت أبي، بدأت أعمل في نقل الفحم بمفردي، كنت أنقله لجميع سكان البلدة، كانوا ما أن يرونني حتى يبادروني بالسؤال:

((لاي فا، أين أباك؟))

((لقد مات.)) هكذا أجيبهم.

فيضحكون بصوت مرتفع، ثم يسألونني:

((وأمك؟))

((ماتت.)) أجيب

((لاي فا، هل أنت معتوه؟)) يسألون.

((نعم أنا معتوه.)) أقول وأنا أهز رأسي مؤكدا.

وعندما كان أبي لايزال على قيد الحياة، كان كثيرا ما يخاطبني قائلًا:

((لاي فا، يا لك من معتوه، ثلاث سنوات قضيتها في التعليم دون أن تتعلم حرفا واحدا. لاي فا، لا لوم عليك في ذلك، اللوم كله على أمك، التي كادت أن تحطم رأسك لحظة ولادتك. لاي فا، والحق يقال، أنه لا لوم على أمك أيضا، فقد كانت رأسك كبيرة، لدرجة أنها ماتت بعد ولادتك..))

((لاي فا، كيف ماتت أمك؟)) يسألونني.

((ماتت وهي تلد.)) أجيبهم.

((ماتت وهي تلد مَن؟)) يسألون.

((وهي تلدني أنا.)) أقول.

((ومَن هو أباك؟)) يسألون.

((لقد مات.)) أجيبهم.

((كذب، أباك لايزال حي يرزق.)) يقولون.

فأحدق فيهم مليا، قبل أن يقتربون مني، ويهمسون في صوت واحد:

((أنا أباك.))

أفكر برهة وأنا مخفض الرأس، ثم أقول:

((أوه.))

((ألست أنا أباك؟)) يسألون من جديد.

((أوه.)) أهز رأسي بالإيجاب.

اسمع ضحكاتهم العالية، قبل أن أرى السيد تشن يدنو مني ويقول:

((لا تهتم بما يقولون، فأنت كأي إنسان على وجه الأرض لك أب واحد فقط، فكيف تطيق الأم إذا تعدد الآباء؟))

منذ موت أبي، أخذ مكانه جميع رجال هذه البلدة تقريبا، كانوا جميعا يقولون بأنهم آبائي. ومع تعدد آبائي، تعددت اسمائي، حتى أنني كنت لا أستطيع احصاء الأسماء الجديدة التي يطلقونها عليها خلال اليوم الواحد.

فقط كان السيد تشن هو من يناديني: لاي فا، وفي كل مرة اسمعه يناديني بهذا الاسم، كان قلبي ينتفض فرحا. كنت أراه يقف عند مدخل الصيدلية، واضعا يديه في جيبي سترته، وأنا في مكاني أتأمله، وفي بعض الأحيان أتأمله وأنا أضحك بصوت مسموع. وإذا ما طالت وقفتي، كنت أسمع صياحه من هناك:

((هيا امض بسرعة، حتى لا ترهقك سلة الفحم.))

وذات مرة، رفضت الانصراف وناديته من مكاني:

((السيد تشن.))

فإذا به يخرج يديه من جيبيه، ويحدق فيّ قائلا:

((ماذا تناديني؟))

فيقفز قلبي وأنا أرى السيد تشن يدنو مني ويقول:

((بماذا ناديتني قبل قليل؟))

((السيد تشن.)) أقول.

ترتسم على وجهه ابتسامة، قبل أن يقول والابتسامة تفرش وجهه:

((يبدو أنك لست معتوها، فأنت تعرف أنني السيد تشن، لاي فا..))

نادي عليّ مرة ثانية، حتى لا أتمالك نفسي وأضحك معه، ثم قال:

((هل تعرف أن اسمك لاي فا؟))

((نعم.)) قلت.

((انطقه حتى اسمعه بصوتك؟)) قال السيد تشن.

((لاي فا.)) أقول بصوت خفيض.

ضحك السيد تشن بصوت مرتفع، وكذلك فعلت أنا أيضا، قبل أن أسمعه يقول:

((لاي فا، من اليوم احرص على ألا ترد على أي إنسان لا يناديك باسمك، فهمت؟))

((فهمت.)) أجبته ضاحكا.

هز السيد تشن رأسه مؤكدا، ثم قال بينما هو ينظر إلىّ :))السيد تشن))، فأجبته على الفور :))آي!)) فقال: ((أنا أنادي على نفسي، فلماذا ترد أنت؟))

لم أتوقع أن يكون السيد تشن ينادي على نفسه، فضحكت رغما عني، فهز السيد تشن رأسه غاضبا وقال:

((يبدو أنك حقا معتوه.))

قبل سنوات مات السيد تشن، وقبل أيام مات شيو آه سان صاحب الأنف البارزة ، وبين هذا وذاك مات الكثيرين من أبناء البلدة، بل واسمع مؤخرا بعضهم ممن هم في عمر شيو آه سان أصحاب الشعر واللحى البيضاء، يقولون بأنهم ينتظرون الموت في كل لحظة، فأفكر في أنني أنا أيضا أوشكت على أن أفارق هذه الحياة، فكما يقولون أنني أكبر سنا من شيو آه سان، ويسألونني:

((أنت أيها المعتوه، مَن سيتولى جنازتك إذا ما مت؟))

أكتفي بهز رأسي، فأنا حقا لا أعرف مَن سيتولى أمري عند موتي. فأرد عليهم السؤال بسؤال مثله عمَن سيتولى جنازاتهم إذا ما هم ماتوا، فيقولون:

((نحن لدينا أبناء وأحفاد وزوجات، فماذا عنك أنت؟ هل لديك أولاد أو أحفاد؟ أو حتى زوجة؟))

فلا أنطق بكلمة واحدة، لأني حقا هكذا بدون أولاد أو أحفاد أو زوجة، ثم مضيت وسلة الفحم فوق ظهري. وإذا بي أرى في طريقي أن شيو آه سان يمتلك جميع ما يمتلكون. ففي يوم جنازة شيو آه سان صاحب الأنف البارزة، رأيت أولاده وأحفاده وجميع أفراد عائلته يشيعونه إلى مثواه الأخير وهم يبكونه في الطرقات. فحملت السلة الفارغة على ظهري، وسرت خلفهم إلى المحرقة، ووسط جموع المشيعين، كنت أتمنى من أعماق قلبي أن يكون لي أولاد وأحفاد وعائلة كبيرة، فما أجمل أن يكون لدى الإنسان عائلة. كنت أسير إلى جوار أحد أحفاد شيو آه سان، والذي كان أكثرهم بكاءً على الميت، وإذا به يسألني وهو يبكي:

((يا هذا، ألست أنا أباك؟))

وفي الوقت الحالي، لم يعد هؤلاء الذين تتقارب أعمارهم معي يرغبون في أن يكونوا آبائي، فبعد أن أطلقوا عليّ الكثير من الأسماء فيما مضى، أجدهم يأتون ويسألونني عن أسمي. يقولون:

((بحق السماء ما اسمك؟ لتخبرنا به حتى إذا مت نعلم اسم الميت لنشيعه.. حاول أن تساعدنا وتتذكر. فها هو شيو آه سان قد مات، وما أن نقول بأنه مات، فإن الجميع سيعلمون اسم الميت. فماذا إذا مت أنت؟ إننا حتى لا نعلم لك اسما.. ((

أما أنا فأعرف أن اسمي لاي فا. فقد كان السيد تشن هو الوحيد الذي يعرف اسمي، ومنذ وفاته لم يعد أحد في هذه البلدة يعرفه. وها هم يرغبون جميعا في معرفة اسمي، ويضحكون عندما امتنع عن إخبارهم به، يقولون إني على كل حال معتوه، هكذا هو في حياته وسيظل معتوها حتى بعد موته.

أعلم أنني معتوه، وأن هذا المعتوه الذي هو أنا قد تقدم به السن، بل وأوشك على الموت. وأحيانا أفكر وأرى أنهم على صواب، فأنا رجل بدون أولاد أو أحفاد، وإذا ما مت فلن يكون هناك مَن يبكيني ويشيعني إلى مثواي الأخير. فضلا عن أنني بدون اسم، وهكذا فلن يعرف الناس شيئا عن هوية ذلك الميت.

يشغلني هذه الأيام التفكير في تلك الكلبة التي كانت تلازمني قبل سنوات، تلك الكلبة الصفراء النحيفة صغيرة الحجم، والتي كانوا يقولون عنها أيضا إنها كلبة معتوهة، ولما كنت أعلم أنهم بذلك يسبونها، فلم

أكن أناديها بالمعتوهة، كنت أناديها:

((وي.))

ذلك عندما لم تكن شوارع هذه البلدة واسعة كما هي عليه الآن، ولم تكن البنايات عالية، وكنت ترى السيد تشن واقفا عند مدخل صيدليته، ذلك قبل أن يظهر الشيب في شعر رأسه، وعندما كان شيو آه سان في ريعان شبابه، وقبل أن يتزوج وينجب، عندما كان يردد دائما:

((شاب مثلي في حوالي العشرين من عمره بإمكانه أن.. ((

كان أبي قد مات، وكنت أحمل الفحم بمفردي إلى جميع بيوت البلدة، بقيت على ذلك عدة سنوات. وبينما كنت أسير في شوارع البلدة، كنت كثيرا ما أرى تلك الكلبة الصفراء النحيفة صغيرة الحجم، أراها تلهث وجسدها مبلل. وفي بعض الأحيان، كان شيو آه سان صاحب الأنف البارزة، يمسك بها وينادي عليّ، قبل أن يقف مع بعضهم عند مدخل بيت أحدهم ويقول:

((وي..، هل تفكر في الزواج؟))

أقف في الجهة المقابلة من الطريق أحدق فيهم وهم يضحكون بصوت مرتفع، قبل أن أجدني أضحك معهم، ثم يقول أحدهم:

((يبدو أن هذا المعتوه يرغب في النساء، انظروا إنه يضحك تعبيرا عن سعادته.. ((

((تكلم هل ترغب في الزواج؟)) يسأل شيو آه سان.

((لماذا؟))، فيقول شيو آه سان ((نجد لك زوجة تؤنس وحدتك، تشاركك السرير والطعام و.. فما رأيك؟))

فأومأ برأسي، عندها أجدهم يلقون إليّ بتلك الكلبة، ويقول شيو آه سان:

((وي، هيا خذها بسرعة.))

قبل أن أراهم يقهقهون، ويقولون في صوت واحد:

((هيا أيها المعتوه، تقدم وخذ بيد زوجتك.))

((هذه ليست امرأة.)) أقول وأنا أهز رأسي بالنفي.

يصرخ شيو آه سان في وجهي قائلا:

((ليست امرأة! فماذا تراها إذن؟))

((إنها كلبة، كلبة صغيرة.)) أقول.

تتعالى ضحكاتهم ويقولون: ((هذا المعتوه يعرف أنها كلبة.. بل إنها كلبة صغيرة..))

((كذبت.)) يقول شيو آه سان، قبل أن يستطرد ((بل امرأة، أنظر جيدا..))

يرفعها شيو آه سان من قدميها الخلفيتين ويقول:

((انظر جيدا، أرأيت بنفسك؟))

أهز رأسي بالإيجاب. فيقول:

((أليس أنها امرأة؟))

أهز رأسي بالرفض، وأقول:

((ليست امرأة، بل أنثى الكلب.))

فتتعالى ضحكاتهم من جديد، وينفجر شيو آه سان في الضحك بشدة حتى يسقط على الأرض، بينما الكلبة لا تتوقف عن النباح. فلا أتمالك نفسي وأضحك، قبل أن ينهض شيو آه سان يوجه حديثه لهم وهو يشير إليّ:

((انظروا لقد عرف أنها أنثى كلب.))

ثم جلس شيو آه سان وقد فشل في التوقف عن الضحك بجنون، حتى أفزع الكلبة ففرت هاربة.

ومنذ ذلك اليوم، كان شيو آه سان ورفاقه ما أن يقابلونني حتى اسمعهم يقولون ساخرين:

((وي، أين زوجتك، وي، لقد التهمت زوجتك قطع اللحم في بيتي، وي، زوجتك حبلى..))

وهكذا يستمروا في نوبة ضحك هيستيرية، فلا أتمالك نفسي أمامها حتى أجدني أضحك معهم، وأنا على يقين من أنهم يسخرون مني ومن الكلبة، ويتمنون أن يزفونها إليّ زوجة كما يقولون.

استمروا على هذه الحال في السخرية مني ومن الكلبة، حتى أنني بدأت أشعر تجاهها بشعور غريب، كنت أتوقف في الطريق وأجدني أحدق فيها. وذات يوم همست إليها قائلا:

((وي.))

فما أن سمعت الكلبة ندائي، حتى ردت عليّ وهى تنبح، ثم ألقيت إليها بنصف قطعة المانتو[7] التي كانت في يدي، فالتقطتها في التو وفرت مسرعة.

ولم تنساني الكلبة منذ أن قدمت لها المانتو، كانت ما أن تراني في الطريق حتى تستقبلني بالنباح، وفي كل مرة كنت ألقي لها بقطعة من المانتو كرد للتحية. بل وكنت أحافظ على حمل المزيد من الطعام في جيبي، لألقيه لها متى التقينا في شوارع البلدة، حتى أراها سعيدة بلقائي. كانت ما أن تراني أضع يدي في جيبي، حتى تعرف أنها على موعد مع قطعة مانتو، فترفع قدميها الأماميتين، وتظل تنبح وتقفز تجاهي.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت الكلبة ترافقني طوال الوقت. كنت أسير أمامها وعلى ظهري سلة الفحم، بينما هي تركض ورائي دون أن تسبقني، تركض ورائي من شارع إلى شارع، وما أن ألتفت ورائي، حتى أجدها تلاحقني وهي تنبح وتهز ذيلها، قبل أن تختفي في أحد الشوارع الجانبية، وأنا لا أعرف إلى أين تهرب، وما هي إلا دقائق معدودة حتى تعود ثانية، وتظل تركض ورائي وأنا أتنقل من شارع إلى آخر وعلى ظهري سلة الفحم. وفي بعض الأحيان، كانت تطول مدة هروبها، حتى تعود بعد دخول الليل، لتجدني حينها مستلقيا على سريري، فتقرفص أمام الباب وتظل تنبح حتى أنهض من سريري وأفتح لها. وفي اللحظة التي تراني أمامها، تتوقف عن النباح، ثم تهز لي ذيلها، قبل أن تستدير وتتركني إلى الشارع.

وعندما كنت أسير معها في الشارع، كان شيو آن سان ما أن يرانا معا حتى ينفجر في الضحك، ويسألني:

((وي، أراك تتمشى أنت وزوجتك، أليس كذلك؟ وي، هل أنتما في طريقكما إلى البيت؟ وي، كيف تقضيان ليلتكما؟))

((نحن لا نبيت معا.)) أقول.

((كذبت، كيف لا تبيت مع زوجتك.))

((قلت إننا لا نبيت معا.)) أقول مؤكدا.

((أيها المعتوه، إن أكبر أمنية يتمناها الزوجان أن يبيتان معا.)) يقول بعضهم.

ثم يقول شيو آه سان وهو يؤدي حركة سحب الحبل لإغلاق الضوء:

((وما أن تظلم الغرفة حتى يكونان في أوج النشاط والحيوية.))

كان شيو آه سان ورفاقه يريدونني أن أبيت مع الكلبة، فمضيت أفكر في أن ما يتحدثون عنه لم يحدث قط. ففي مساء كل يوم، كانت الكلبة تهرب مني إلى مكان لا أعرفه، حتى تعود عند طلوع شمس اليوم التالي، وتنتظرني عند مدخل البيت حتى أخرج إليها.

كانت تظل معي طوال النهار تقريبا. تسير خلفي وأنا أحمل الفحم، وتظل تجري هنا وهناك بينما أنا أنقل كمية من الفحم إلى بيت أحدهم، وما أن أنتهى وأخرج إلى الشارع، حتى أجدها تركض ورائي إلى وجهتي القادمة.

مع مرور الأيام، بدأت الكلبة تسمن وتكبر، حتى كنت أنتبه إلى ذلك وهى تركض بجواري، وما أن انتبه شيو آه سان ورفاقه إلى التغير الذي طرأ على الكلبة حتى قالوا لبعضهم البعض:

((انظروا إلى هذه الكلبة السمينة..))

ذات يوم، استوقفني بعضهم، ثم قال شيو آه سان متجهما:

((وي، كيف لم توزع علينا الحلوى!))

وما أن ستوقفني شيو آه سان ورفاقه، حتى وجدت الكلبة لا تكف عن النباح والقفز تجاههم، بينما أراهم يشيرون إلى أحد المتاجر في الجهة المقابلة ويقولون:

((هل ترى ذلك الوعاء الزجاجي على رف المتجر؟ ذلك الوعاء الممتلئ بالحلوى؟ هيا بسرعة.

((ماذا أفعل؟ أسأل.

((هيا اشتري لنا الحلوى.)) يقولون.

((ولماذا اشتري لكم الحلوى؟))

((لنأكلها.))

((اللعنة عليك يا وي، كيف لم تشترى لنا الحلوى حتى الآن! نريد حلوى هذه المناسبة السعيدة، هل تفهم؟ فنحن الذين خطبنا لك العروس!))

ثم وضعوا أيديهم في جيبي، وأخذوا يتحسسوا ما به من النقود، فأخذت الكلبة تنبح وتقفز تجاههم. ركلها شيو آه سان بقدمه، فابتعدت قليلا وهي لا تكف عن النباح، قبل أن يهاجمها شيو آه سان من جديد، ففرت بعيدا عنه. وأخيرا وضعوا أيديهم على ما في جيبي من نقود، أخذوا منها ورقتين فئة عشرة قروش، ورفعوا النقود عالية وتوجهوا بها إلى متجر البقالة في الجهة المقابلة، وهم يضحكون بصوت مرتفع. وما أن ابتعدوا عني حتى عادت الكلبة ووقفت إلى جواري، قبل أن تفر هاربة عند عودتهم مرة أخرى. ثم وضعوا في يدي بعض قطع الحلوى وقالوا:

((هذا نصيبك أنت وزوجتك.))

انصرفوا وهم يتلذذون بالحلوى في أفواههم. ولما كان الظلام قد أوشك أن يخيم على المكان، أخذت ما وضعوه في يدي من الحلوى وسرت في طريقي إلى البيت، والكلبة تقفز أمامي وخلفي، وهي لا تكف عن النباح بجنون، هكذا حتى وصلت إلى بيتي، إلا أنها لم تفر مسرعة هذه المرة، وإنما وقفت عند الباب

تنظر إليّ، حتى وجدتني أقول لها:

((وي، كفاكِ نباحا.))

ولكنها لم تتوقف عن النباح، فقلت:

((هيا ادخلي.))

لكنها لم تتحرك من مكانها، وظلت في مكانها ترفع رقبتها ولا تكف عن النباح، فلوحت لها بيدي، فتوقفت عن النباح ودخلت مسرعة.

منذ ذلك اليوم، بدأت الكلبة تقيم معي في غرفتي. وفي ذات اليوم، خرجت وأتيت ببعض القش ووضعته في ركن داخل الغرفة التي اقيم بها، وجعلت منه سريرا تنام عليه الضيفة الجديدة. قضيت ليلتي أفكر في هذه الكلبة التي تقيم معي في نفس الغرفة، والتي ستكون رفيقتي من اليوم، أو كما قال السيد تشن:

((أتزوج حتى أجد لي رفيقة في هذه الحياة.)) ثم وجدتني أتحدث إلى الكلبة: ((يقولون أننا زوجان، ولكن لا يمكن أن يكون هناك زواج بين الانسان والكلاب، فأنا وأنت على أقصى تقدير رفيقان.))

جلست مع رفيقتي على كومة الأعشاب. بدأتني هي بالنباح، فرددت عليها ضاحكا بصوت مسموع، ثم أخذت تنبح ثانية، وأنا أضحك، هكذا حتى تذكرت قطع الحلوى في جيبي، فأمسكت بها، ثم نزعت غلاف قطعة وقلت لها:

((إنها قطعة حلوى، حلوى المناسبات السعيدة كما قالوا لي.. ((

وما أن انتبهت إلى قولي حلوى المناسبات السعيدة، حتى وجدتني أضحك خلسة، ثم نزعت غلاف قطعة ثانية، ووضعت قطعة في فم رفيقتي وألقيت بالثانية في فمي، قبل أن أسالها:

((لذيذة، أليس كذلك؟))

ثم رأيتها تقضم قطعة الحلوى بصوت مسموع، ثم بدأت أنا أيضا أقضم قطعتي، وبصوت أعلى من صوتها، هكذا أخذنا نتلذذ بالحلوى، وأنا أضحك بين الحين والآخر، وهى تنبح.

ارتبطت حياتي بتلك الكلبة، قضينا معا قرابة عامين، كانت ترافقني في رحلتي اليومية لبيع الفحم، كانت لا تتوقف عن الركض أمامي وأنا أحمل الفحم وانتقل من بيت إلى آخر، وما أن أنتهي من توزيع كمية الفحم اليومية، حتى أجدها تركض ورائي على مهل. وكان المارة ما أن يروننا على تلك الحالة، حتى لا يتمالكون أنفسهم من الضحك، ثم يسألونني وهم يشيرون إلينا معا:

((وي، أنتما زوجان، أليس كذلك؟))

فأكتفي بأن أرد عليهم قائلا ((أوه.))، ثم أواصل السير وأنا مخفض الرأس.

((وي، هل أنت كلب؟)) يسألونني.

فأكتفي بالرد ((أوه))، فأسمع صوت السيد تشن الذي يتدخل قائلا:

((وهل يمكن أن تكون أنت والكلبة زوجان؟))

((لا يمكن أن تكون هناك علاقة زواج بين الانسان والكلاب.)) أقول وأنا أهز رأسي نافيا.

((جميل أن تعرف هذا، من اليوم فصاعدا يجب ألا ترد على هؤلاء الذين يلمحون لك بهذه العلاقة..))

فأهز رأسي بالموافقة، وأقول ((أوه))، فيقول السيد تشن وعلى وجهه مسحة غضب:

((هلا توقفت عن أوه، أوه، فيكفي أن تتذكر جيدا هذه النصيحة.))

أهز رأسي ثانية بالموافقة، وأقول ((أوه))، فيقول السيد تشن وهو يلوح لي بيده:

((حسنا، حسنا، هيا امضي إلى حال سبيلك.))

أحمل سلة الفحم وأواصل عملي اليومي، والكلبة تركض أمامي. وقد بدا لي أنها كانت تسمن يوما بعد يوم، حتى شعرت بأنها قد امتلأت وكبرت أكثر خلال أيام معدودات، بل ولاحظت أنها أصبحت أكثر جرأة مما مضى، فكانت في بعض الأحيان تقضي يوما كاملا بعيدا عني، ولا أعرف إلى أين تذهب، حتى تعود إلى البيت مع دخول الليل، وتنام عند الباب. وما أن أنهض وأفتح لها الباب حتى تجري مسرعة إلى الركن المخصص لها في الغرفة، وتستلقي علي سرير القش، وهي تسند رأسها إلى الأرض، وتنظر إلىَ بطرف عينها. حتى أجدني أحادثها:

((أخيرا عدتِ، وكيف كل هذا الاستعجال على النوم، تجرى إلى السرير ولا تنتظري حتى أكمل كلامي معك..))

ثم أراها تغمض عينيها قبل أن أنهي كلامي، فأبقى لحظات أفكر في أمرها، قبل أن أجدني أنا أيضا استسلم للنوم.

كبرت كلبتي وسمنت أكثر فأكثر، حتى كان شيو آه سان ورفاقه ما أن يرونني حتى يقولون:

((وي، انت أيها المعتوه متى ستذبح الكلبة؟)) ثم يستطردون وهم يبلعون ريقهم ((نرى أن تنتظر حتى نزول الثلج، وعندئذٍ نقوم بذبحها، وسلقها بإضافة الصوص والقرفة والتوابل.. ثم نطبخها على نار هادئة لمدة يوم كامل، وسنتلذذ بوجبة شهية..))

ولما كنت أعلم أنهم يشتهونها، حملت سلة الفحم وانصرفت من أمامهم في عجالة، والكلبة تركض ورائي. ولم أنسَ ما سمعته منهم حول انتظارهم نزول الثلج لذبح الكلبة وتناول لحمها، فقصدت صيدلية السيد تشن وسألته:

((متى سينزل الثلج؟))

((لا يزال الوقت مبكرا على نزول الثلج، فأنت لاتزال ترتدي التيشرت الصيفي، والثلج ينزل عندما نبدأ ارتداء المعاطف القطنية الثقيلة.)) قال السيد تشن.

وقد أثلج كلام السيد تشن صدري، ولكن حدث عكس ما كنت أتوقع، فقبل أن ارتدي المعطف القطني، وقبل نزول الثلج بشهور، عقد شيو آه سان ورفاقه العزم على ذبح الكلبة وتناول لحمها. فكان أن أتوا بقطعة عظم كبيرة خدعوا بها الكلبة حتى أدخلوها بيت شيو آه سان، ثم أغلقوا الأبواب والنوافذ، وامسكوا بالعصى وأوسعوها ضربا، حتى تسقط ميتة ويقوموا بسلقها وطبخها.

ولما كانت الكلبة تعلم أنهم يمكرون بها، ويخططوا لذبحها وتناول لحمها، فقد حشرت نفسها تحت سرير شيو آه سان، فيما أخذ شيو آه سان ورفاقه يوسعونها ضربا بالعصي، وهي تنبح بأعلى صوتها، حتى سمعت صوتها بينما كنت أمر بجوار بيت شيو آه سان.

وفي صباح ذلك اليوم، وبينما كنت أسير فوق الجسر، وما أن التفت ورائي حتى لم أجدها تركض ورائي كعادتها، عصر اليوم نفسه، سمعت صوت نباحها داخل بيت شيو آه سان. فتوقفت أمام البيت، قبل أن يخرج شيو آه سان ورفاقه، وما أن رآني شيو آه سان حتى قال:

((أنت يا وي، أيها المعتوه، لقد جئت في الوقت المناسب، وي.. أيها المعتوه، هيا أدخل ونادي على

كلبتك لعلها تخرج معك.))

ثم دس أحدهم في يدي حبلا، وقالوا:

((إليك بهذا الحبل أربطه حول رقبتها، حتى تخنقها.))

هززت رأسي بالرفض، قبل أن أعيد إليهم الحبل وأقول:

((ولكن الثلج لم ينزل بعد.))

((ماذا يقول هذا المعتوه؟)) تساءلوا.

((يقول إن الثلج لم ينزل بعد.)) أجاب أحدهم.

((وماذا يعني بقوله إن الثلج لم ينزل بعد؟)) تساءلوا.

((لا أعرف، فأنا لست معتوها مثله حتى أفهمه.)) رد أحدهم.

ثم سمعت صوت الكلبة تنبح بالداخل، وقد كان بعضهم يهاجمونها بالعصي، قبل أن يدنو مني شيو آه سان ويربت على كتفي ويقول بصوت حاول أن يكون ودودًا:

((وي، يا صديقي، هيا أدخل ونادي عليها لتخرج معك..))

ثم سحبوني إلى داخل البيت، وهم يقولون لشيو آه سان:

((أي صديق هذا الذي تناديه.. لا تكثروا معه من هذا الكلام الفارغ.. هيا خذ هذا الحبل وأربطه في رقبتها.. حتى تخنقها.. كيف لا تتحرك؟ إذا لم تنفذ ما أمرناك به سنخنقك أنت بهذا الحبل..))

فاعترض شيو آه سان على طريقة كلامهم معي، وقال لهم ناصحا:

((إنه شخص معتوه، ولن ينفع معه التهديد والوعيد، الخداع أفضل طريقه للتعامل معه..))

((وإن كنا نرى أن الخداع لن ينفع معه أيضا.)) قالوا.

رأيت السيد تشن قادما نحونا، وهو يضع يديه في جيبيه، وقد أخذ يدنو منا شيئا فشيئا.

((علينا أن نقوم بفك السرير، لنرى إلى أين ستذهب هذه الكلبة!)) قال بعضهم.

((لا يمكن فكه، فالكلبة الآن غاضبة جدا، وإذا غضبت أكثر، ستهجم علينا وتعضنا.)) قال شيو آه سان.

((وأنت أيها الكلب.. هيا افعل كما أمرناك، كيف لا تتحرك وتأتنا بها!)) قالوا موجهين كلامهم لي.

((أوه)). هكذا قلت وأنا مخفض الرأس، بينما تحدث السيد تشن قائلا:

((طالما أنكم بحاجة إلى مساعدته، فعليكم أن تنادونه باسمه، فهو لن يفعل شيئا طالما أنكم لا تتوقفون عن السخرية منه وسبه، أما قولكم بأنه معتوه، فلتعلموا أنه في بعض الأحيان يكون عكس ذلك تماما.))

((حسنا، سنناديه باسمه، ولكن مَن منكم يعرف اسمه الحقيقي؟ ماذا يدعى؟ ماذا يدعى هذا المعتوه؟)) قال شيو آه سان.

((هل تعرف اسمه يا سيد تشن؟))

((بالطبع أعرف.)) قال السيد تشن.

فقال شيو آه سان ورفاقه وقد تجمعوا حول السيد تشن:

((وما هو اسم هذا المعتوه أيها السيد تشن؟))

((اسمه لاي فا.)) قال السيد تشن.

وما أن سمعت السيد تشن يقول أن اسمي لاي فا، حتى انتفض قلبي فجأة. وإذا بشيو آه سان يدنو مني ويحتضني مناديا:

((لاي فا..))

فعاد قلبي ينتفض من جديد، وشيو آه سان يحتضني بين ذراعيه إلى داخل بيته وهو يقول:

((لاي فا، هل تعلم أننا صديقان قديمان.. لاي فا، هيا ادخل ونادي على الكلبة..لاي فا، فقط عليك أن تدنو من السرير..لاي فا، هيا نادي عليها بصوت خفيض.. نادي عليها ((وي!)) كما عودتها..لاي فا، هيا يا صديقي الأمر متروك لك.))

ثم دخلت إلى غرفة شيو آه سان، جلست القرفصاء أمام السرير، فرأيت الكلبة ترقد في ركن بعيد تحت السرير، وجسدها ملطخا بالدماء، فناديت عليها بصوت خفيض:

((وي.))

وما أن سمعت الكلبة ندائي، حتى خرجت مسرعة وارتمت عليّ، وأخذت تتمسح بي برأسها وجسدها كله، وقد لطخ دمها وجهي. وكان صوت نباحها عاليا وبصورة مذهلة، فلم أرها تنبح بهذا الشكل من قبل وكأنها قد جُنت، حتى تأثرت كثيرا لحالتها التي رأيتها عليها. مددت يداي احتضنها، إلا أنني بمجرد أن فعلت، فإذا بهم يطوقونها بالحبل. وبشيء من القوة تمكنوا من انتزاعها من حضني. وقبل أن أدرك ما حدث في لمح البصر، إذا بالكلبة لم تعد بين يدي. وإذا بي اسمعها تنبح بصوت ضعيف. ثم رأيتها تتحرك بصعوبة، قبل أن تفقد القدرة على الحركة تماما. فسحبوها من على الأرض، فوجدتني أقول لهم:

((ولكن الثلج لم ينزل بعد.))

التفتوا نحوي، ثم غادروا الغرفة وهو يضحكون بصوت مرتفع.

وفي مساء ذلك اليوم، جلست بمفردي على كومة القش التي كانت تنام عليها الكلبة، وجعلت أفكر فيما حدث، وقد عرفت أنهم تمكنوا من ذبح كلبتي، وأنهم قد سلقوها في الماء، ووضعوا معها الصوص والقرفة والتوابل، وأنهم يستعدوا لطبخها وتناول لحمها.

أخذت أفكر طويلا فيما حدث، وأنا أعلم أنني أنا الذي تسببت في موتها، فأنا الذي أخرجتها بنفسي من تحت سرير شيو آه سان، حتى تمكنوا منها وخنقوها. كل ما فعلوه أنهم نادوا علي باسمي (لاي فا) عدة مرات، فانتفض قلبي فرحا، وساعدتهم في النداء على الكلبة حتى خرجت من تحت السرير. وما أن أفكر في كل ما حدث لها، حتى أهز رأسي يمينًا ويسارًا، أهزها لوقت طويل، ثم أقول في نفسي: ((من الآن فصاعدا، لن أرد على أي إنسان يناديني باسم: لاي فا.

كتبت في 5–10–1994

6- وي wei كلمة نداء في اللغة الصينية، تستخدم في التعارف كأن يسأل أحدهم آخر: وي، مَن أنت؟ بمعني يا هذا. كما تستخدم عند استقبال اتصال تليفوني، بمعني أهلا، كأن يقول أحدهم: وي، مَن المتصل؟ واقرب معنى لها في سياق القصة: (يا هذا- أو يا هذه) المترجم .

7- المانتو: نوع من الخبز التقليدي المعروف في الصين، وبشكل خاص في شمال الصين، يصنع من الدقيق ويكون عادة محشو بالخضروات والبصل، وأحيانا باللحم. المترجم

((الابن))

في تمام الخامسة من أحد أيام السبت، تجمَّع أكثر من ثلاثمائة عامل وعاملة عند الباب الرئيسي لأحد مصانع المعدات، في انتظار جرس نهاية الدوام، وقد علت أصوات اصطدام الجموع المحتشدة في المقدمة بالباب الحديدي الذي كان لا يزال مغلقًا، في الوقت الذي كانت ترتفع فيه صيحات البقية في المؤخرة. وبدت جموع العمال المحتشدين خلف الباب كقطعان البهائم المحتجزة خلف أسوار الحظائر، والتي تتزاحم بدون سبب عند الغروب مع هبوب رياح الشتاء الباردة. فيما خيَّم الظلام والسكون على نوافذ المصنع من خلفهم.

وقف شه جه كانغ صاحب الواحد وخمسين عامًا في مقدمة الصفوف مرتديًا معطفًا عسكريًّا، وقف في مقابل الفتحة الصغيرة في مقدار حجم إصبع الإبهام التي تفصل بين درفتي الباب، وقد تسلل من خلالها في اتجاه أذنيه تيار هواء بارد، فأحس للحظة أن أذنيه أصبحتا أصغر مما كانتا عليه قبل تعرضهما لتيار الهواء البارد.

كان شه جه كانغ يقف آنذاك إلى جوار الحارس العجوز الأصلع، والذي احمرت صلعته من شدة الهواء البارد، كان الحارس يرتدي سترة قطنية سميكة، ويرتدي فوقها زي العمل الباهت، يتدلى من جيبه الأمامي مفتاح في حجم كفة اليد، وسط صياح العمال المحتشدين الذي يطلبون منه فتح الباب، في حين كان العجوز واقفًا في مكانه دون أن يُلقي بالًا لصياحهم المتواصل، وهو ينظر هنا وهناك، وما إن ينتبه إلى أحدهم يتحدث إليه، حتى يشيح بوجهه بعيدًا عنه. ولم يكد يسمع صوت جرس انتهاء العمل حتى أخرج المفتاح من جيبه، وجعل يتقدم بين العمال المتزاحمين في المقدمة، حتى أفسح له هؤلاء طريقًا بينهم، وقبل أن يمد يده ويدخل المفتاح في القفل، جعل يحرك مرفقه يمينًا ويسارًا، وفي اللحظة التي تأكد خلالها بأن مرفقه يتحرك بحرية دون أدنى مضايقات من العمال المحتشدين، عندها أدخل المفتاح في القفل وفتح باب المصنع.

كان شه جه كانغ أول من تخطت قدماه باب المصنع، وما إن وجد نفسه خارج المصنع حتى انعطف يمينًا قاصدًا محطة الترام التي تقع على مسافة محطة من المصنع. وقد كانت هناك بالفعل محطة ترام عند باب المصنع، إلا أنه فضل السير لمسافة محطة كاملة حتى يتفادى زحام زملائه عند صعود القطار. فعلى الأقل سيتزاحم في المحطة الواقعة عند باب المصنع أكثر من أربعين من زملائه الذين ينتظرون هذا الخط، في حين أن القطار عادة ما يصل إلى محطة المصنع وقد امتلأ عن آخره.

واصل شه جه كانغ طريقه إلى المحطة وهو منشغل بالتفكير في زملائه الذين يزيد عددهم على أربعين عاملًا وعاملة، ولم يكن بحاجة إلى أن يلتفت إليهم ليرى مشهد تكدسهم على المحطة، والذي يعتقد أنه لن يختلف عن مشهد تكدس جموع العمال أمام باب المصنع، وكان من بين العمال المنتظرين على المحطة عشرة من الشباب الأقوياء، وأكثر من عشر عاملات، من بينهن ثلاث عاملات يشتركن معه في تاريخ الالتحاق بهذا المصنع، إحداهن مصابة بمرض القلب والأخريان مصابتان بمرض الكلى.

وما إن وقعت عينا شه جه كانغ على لافتة المحطة، حتى رأى القطار يدنو من المحطة، فأخرج يديه من جيبيه وفر مسرعًا نحو المحطة، ليجد نفسه أمام اللافتة، وفي نفس التوقيت الذي دخل فيه القطار المحطة.

وهناك رأى ثلاث مجموعات من الركاب المنتظرين، وأخذ القطار يسير ببطء، والركاب يتحركون في

نفس اتجاه القطار، هكذا حتى وقف القطار، وعندئذ توقف جميع الركاب عن الحركة، ولم يكد يُفتح باب القطار حتى اندفعت إلى داخله الحشود المنتظرة.

وفي اللحظة التي وصل فيها القطار محطة المصنع الذي يعمل به شه جه كانغ، كان هو يقف وسط القطار، ذراعاه ملتصقتان بجسده أشد الالتصاق، وقد واصل القطار السير دون أن يتوقف عند هذه المحطة.

ألقى شه جه كانغ نظرة على زملائه المنتظرين على محطة المصنع، ليجد أنه قد تبقى منهم فقط حوالي ستة عشر أو سبعة عشر من أصل أربعين عاملًا وعاملة، هذا بالإضافة إلى سبعة أو ثمانية من الركاب الغرباء، فكر في نفسه أنه من المؤكد أن هناك ترام أو اثنين قد مرَّا بالمحطة قبل وصوله. وأن زميلاته المريضات لم يتمكنَّ من مزاحمة الركاب، وبالتالي فإنهن لا يزلن منتظرات أمام لافتة محطة المصنع، حيث تقف مريضة القلب في الوسط بين زميلتيها مريضتي الكلى، تقف ثلاثتهن على مقربة شديدة من بعضهن، ترتدي كل منهن معطفًا قطنيًّا سميكًا، ووشاحًا من الصوف، فيما تعبث الرياح الشتوية بشعرهن، وقد أخفى الظلام ملامحهن.

وفي اللحظة التي مر فيها القطار بالمحطة، رأى شه جه كانغ زميلاته يشيعن القطار ويتابعن تخطيه المحطة دون توقف، هكذا حتى ابتعد عن محطة المصنع.

نزل شه جه كانغ بعد مسافة تسع محطات، ثم سار إلى الخلف حوالي ثلاثين مترًا، حتى وصل إلى محطة الأتوبيس العام. وعندها كان الليل قد دخل، وسطع ضوء أعمدة الإنارة على المحطة، وأضاءت لمبات المتاجر المنتشرة على جانبي الطريق، حتى سطع ضوؤها على ممر المارة والمساحات المحيطة بلافتة المحطة.

وكان هناك عدد كبير من الركاب ينتظرون في هذه المحطة، حتى إن المجموعة التي كانت في المقدمة كانت تقف تقريبًا وسط الطريق العام، فأقحم هو نفسه بين هؤلاء، وعندها مرت حافلة صغيرة، وما إن فُتح باب الحافلة حتى أطل منه رجل يعلق على صدره حقيبة من القماش، أطل برأسه خارج الحافلة وراح ينادي على الركاب:

((التذكرة بيوانين، بيوانين)).

فصعد الحافلة رجلان وسيدة، فيما كان المُحصل ما يزال ينادي على الركاب:

((التذكرة بيوانين)).

وفي تلك اللحظة ظهرت الحافلة العمومية وهي تقترب من المحطة، ولم يكد رجل الحافلة الصغيرة يراها حتى أدخل رأسه وأغلق الباب قبل أن تغادر حافلته المحطة، وتفسح الطريق لدخول الحافلة العمومية.

حاول شه جه كانغ أن يدفع بنفسه بسرعة في مقدمة الركاب المنتظرين وهو يفرد ذراعيه ويفسح لنفسه الطريق، ثم راح يتراجع إلى الخلف مع دخول الحافلة المحطة، وقد انتبه إلى أن الركاب المنتظرين خلفه قد دفعهم الزحام إلى ممر المشاة، ومرت الحافلة من أمامه ليتجاوزه الباب الأمامي للحافلة، فتأكد في قرارة نفسه أنه لن يتمكن من الصعود من خلال الباب الأمامي، وأنه قد ينجح في الصعود من الباب الأوسط، ولكن الحافلة فرملت فجأة، ليجد نفسه بعيدًا عن الباب الأوسط بمسافة متر أو اثنين، وقد خرج تقريبًا من الطابور.

فُتح باب الحافلة، ونزل منه ثلاثة ركاب فقط. وتقدم شه جه كانغ خطوتين وهو يمد يديه إلى الأمام

ويحاول أن يفسح لنفسه موضعًا بين الحشود المنتظرة، وفي اللحظة التي بدأت فيها تلك الحشود تتزاحم تجاه باب الحافلة، راح شه جه كانغ يدفع ويفسح لنفسه مكانًا بينهم بقوة لا تقل عن قوة عامل البرادة، حتى نجح في أن يحشر نفسه بينهم، ثم واصل الدفع في اتجاه باب الحافلة.

راح شه جه كانغ يفسح لنفسه مكانًا وهو يدفع بكل ما أوتي من قوة، كما ساعدته قوة دفع الركاب القادمين من الخلف على أن يدفع بنفسه إلى أمام باب الحافلة. وفي اللحظة التي أوشكت فيها قدماه أن تصعدا الباب، إذا بأحد القادمين من الخلف يمسكه من ياقته ويسحبه إلى الخلف بعيدًا عن الباب. فسقط على الأرض، واصطدمت رأسه بقدم أحدهم، وما إن رفع رأسه ينظر إلى تلك القدم، حتى التقت عيناه بعيني فتاة، فرمته الفتاة بنظرة غاضبة، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه.

ولم يكد شه جه كانغ ينهض حتى كان الباب قد أُغلق والحافلة تحركت، كما رأى حقيبة يد إحداهن محشورة في باب الحافلة، يتدلى منها شريط يرفرف بينما الحافلة تبتعد عن المحطة.

استدار وأخذ ينظر حوله لمعرفة هوية ذلك الذي منعه من صعود الحافلة قبل قليل، فوقعت عيناه على شابين في عمر ابنه كانا ينظران إليه ببرود، فرماهما بنظرة سريعة غاضبة، قبل أن يحوّل نظره إلى الركاب الذين لم يتمكنوا من صعود الحافلة، والذين كان بعضهم ينظر إليه، والبعض الآخر ينظر إلى أهداف أخرى. فخطر بباله أن يسبهم، لكنه عدل عن ذلك بعد أن أدار الفكرة في رأسه.

ثم دخلت المحطة حافلتان في نفس التوقيت، وقد نجح شه جه كانغ أخيرًا في أن يستقل الحافلة الثانية. وفي هذه المرة لم ينزل في أقرب محطة من بيته، ولكنه نزل في المحطة التي تسبقها. حيث كان هناك رجل يقف يوميًّا في حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة مساءً عند هذه المحطة لبيع جبن الصويا، وكانت بضاعته معروفة بطعمها اللذيذ. وكانت زوجة شه جه كانغ العاملة بأحد مصانع النسيج قد طلبت منه أن يشتري في طريق عودته من هذا البائع واحد كيلو جرام من جبن الصويا، فاليوم السبت موعد عودة ابنهما الطالب بالسنة الثالثة بالجامعة ليقضي معهما عطلة نهاية الأسبوع.

وبعد أن اشترى شه جه كانغ ما يلزمه من جبن الصويا، سار على قدميه مسافة محطتين عائدًا إلى بيته، حتى وصل البيت أخيرًا قبل أن تدق السابعة مساءً، إلا أنه غضب غضبًا شديدًا عندما اكتشف أن زوجته لم تعُد بعد. فكان موعد انتهاء دوامها في حوالي الرابعة والنصف، بالإضافة إلى قصر المسافة بين جهة عملها وبين البيت. فعادة ما كانت زوجته في هذا التوقيت تكون قد انتهت من إعداد وجبة العشاء، لكنه الآن وجد نفسه مضطرًّا لدخول المطبخ وهو جائع، والمساعدة في تقطيع الخضروات واللحم قبل عودة زوجته.

وأخيرًا عادت زوجته لي شيولان وكانت تحمل في يدها سمكتين، وما إن دخلت البيت ورأت زوجها في المطبخ منشغلًا بتقطيع اللحم، حتى سألته في عجالة:

((هل غسلت يديك قبل القيام بتقطيع اللحم؟)).

رد شه جه كانغ وقد أغضبه سؤالها:

((ألم تنتبهي إلى يدي المبتلتين)).

تابعت: ((وهل غسلتهما بالصابون؟ فالجميع يخشى من فيروس الأنفلونزا المعدية المنتشر في الشارع حاليًّا، هذا بالإضافة إلى الالتهاب الكبدي، فيجب أن يقوم الواحد منا فور عودته إلى المنزل بغسل يديه بالماء والصابون)).

أصدر شه جه كانغ صوتًا من أنفه قبل أن يسألها:

((إذَا فلماذا لم تعودي إلى البيت مبكرًا؟)).

وضعت لي شيولان السمكتين في الحوض، وأخبرته بأنها اشترتهما بثلاثة يوانات، وأضافت:

((كانتا آخر سمكتين عند البائع، وقد طلب فيهما خمسة يوانات، ولكنني ساومته وأعطيته ثلاثة يوانات فقط)).

فقال شه جه كانغ وهو ما يزال غاضبًا:

((وهل يحتاج شراء سمكتين ميتتين كل هذا الوقت حتى تعودي في هذه الساعة المتأخرة؟)).

((لقد ماتتا قبل قليل؟)).

ثم مدت له سمكة ليتحقق منها بنفسه قائلة:

((انظر إلى خدها الأحمر)).

((أقصدكِ أنت)).

ثم أشار إلى ساعة يده، وقال بلهجة غاضبة:

((انظري، لقد عُدتِ بعد السابعة مساءً)).

ردت عليه لي شيولان بنفس اللهجة:

((وما المشكلة؟ ما المشكلة في عودتي بعد السابعة؟ أنت يوميًّا تعود متأخرًا، فهل حدث أن سألتك عن سبب تأخرك؟)).

فسألها شه جه كانغ:

((وهل أخرج من العمل قبلك؟ وهل المصنع الذي أعمل به أقرب إلى البيت مقارنة بالمصنع الذي تعملين به؟)).

((لقد تعثرت قدمي)). قالت.

ثم ألقت لي شيولان بالسمكة جانبًا، وقالت وهي في طريقها إلى غرفتها:

((سقطت من الحافلة، ولم أستطع الوقوف على قدمي لمدة طويلة، حيث جلست على جانب الطريق حوالي ثلاثين إلى أربعين دقيقة، حتى كدت أتجمد من شدة البرد)).

فوضع شه جه كانغ قطع اللحم التي كان منشغلًا بتقطيعها جانبًا، ثم دنا منها وقال:

((تقولين إنك سقطت من الحافلة؟ وأنا أيضًا سقطت من الحافلة، بل جذبني أحدهم من ياقتي)).

ثم سكت شه جه كانغ قبل أن ينهي كلامه ويقص عليها ما حدث معه، حيث رأى زوجته ترفع بنطالها حتى الركبة، فرأى كدمة في قدمها في حجم البيضة، ثم انحنى قليلًا ولمسها قبل أن يسألها:

((وكيف سقطتِ؟)).

((بينما كنت أنزل من الحافلة، حدث تزاحم شديد للركاب عند الباب فسقطت تحت أقدامهم)). ردت الزوجة.

وهنا دخل ابنهما عائدًا من الجامعة، وكان يرتدي معطفًا أحمر اللون، وما إن دخل الغرفة ورأى الكدمة في قدم والدته، حتى انحنى مثل والده وسألها باهتمام:

((تعثرت قدمك، أليس كذلك؟)).

ثم قال وهو منشغل بخلع المعطف:

((يجب أن تحافظا على تناول الكالسيوم، فالكالسيوم ليس فقط مهمًّا لبناء عظام لأطفال، وإنما هو كذلك مهم للكبار، خاصة أن أجسامكما تستهلك كميات كبيرة منه يوميًّا، وبالتالي فإنه من السهل تعرض عظامكما للكسر. فإذا سقطت أنا مثلًا من الحافلة، فلا يمكن أن تتأثر قدمي بهذه الصورة التي أراها في قدم والدتي)).

ثم فتح الابن التليفزيون وجلس على الأريكة، ودس إلى أذنه سماعة الهاتف وجلس ينصت إلى أغنيه على إذاعة الأغاني.

فسأله والده:

((أنت الآن تشاهد التليفزيون أم تستمع إلى الراديو؟)).

التفت الابن إلى والده ونظر إليه نظرة سريعة وكأنه لم يفهم قصده، ثم استدار إلى الجهة الثانية، قبل أن يسمع صوت والدته تسأله: ((هل غسلت يديك؟)).

فالتفت إليها وأخرج أحد طرفي السماعة من أذنه وقال:

((ماذا تقولين؟)).

((أسرع بغسل يديك، فهناك أنفلونزا معدية تنتشر هذه الأيام، ومن السهل الإصابة بها في الحافلات العامة، فأسرع بغسل يديك بالماء والصابون)). قالت الأم.

فأعاد الابن السماعة إلى أذنه ثانية وقال: ((لا داعي لأن أغسل يديّ))، وأضاف: ((فأنا على أي حال عُدت بالتاكسي وليس بالحافلة العامة)).

وفي تلك الليلة، خاصم النوم جفني شه جه كانغ، فجلس يفكر في راتب زوجته لي شيولان التي تتقاضى خلال الشهور الخمسة الأخيرة ما يزيد على مائة يوان فقط، في حين أن حاله أفضل منها بعض الشيء، فهو يتقاضى حوالي أربعمائة يوان، فراتبهما معًا أقل من ستمائة يوان شهريًّا، في حين زاد سعر الأرز مؤخرًا إلى واحد يوان وثلاثين قرشًا للنصف كيلو جرام، واللحم إلى اثني عشر يوانًا للنصف كيلو جرام، حتى الفلفل زاد سعره إلى ثلاثة يوانات للنصف كيلو جرام. وبالرغم من هذه الزيادات إلا أنهما ما يزالان يخصصان لابنهما ثلاثمائة يوان شهريًّا، ويستبقيان لنفسيهما ما يزيد بقليل على مائتي يوان. وإذا بابنهما يعود يوم السبت لقضاء العطلة معهما مستقلًّا سيارة التاكسي.

كما خاصم النوم جفني الزوجة لي شيولان، وما إن رأت زوجها يتقلب في السرير حتى سألته:

((لم تنم بعد؟)).

رد الزوج: ((نعم)).

فاستدارت لي شيولان ناحيته وسألته:

((تُرى كم دفع ابننا لسيارة التاكسي؟)).

((لا أعرف، فأنا لم أستقل التاكسي من قبل)).

ثم أضاف شه جه كانغ:

((وإن كنت أعتقد أن الأجرة لن تقل عن ثلاثين يوانًا)).

فصرخت لي شيولان: ((ثلاثين يوانًا؟)).

وأخذ شه جه كانغ تنهيدة قبل أن يقول:

((لو كان يعلم أن هذا المال إنما يخرج من تحت أضراسنا!)).

ثم توقف الزوجان عن الكلام، وما هي إلا لحظات حتى غلب شه جه كانغ النوم، ثم لحقت به زوجته.

وفي صباح اليوم التالي، خرج ابنهما من غرفته والسماعات في أذنيه، وجلس لمشاهدة التليفزيون وهو يستمع إلى الموسيقى، وهنا قرر شه جه كانغ ولي شيولان أن يتحدثا إلى ابنهما، فجلست الأم إلى جوار ابنها، بينما سحب الأب كرسيًّا وجلس في مقابلهما، ثم بدأ شه جه كانغ الحديث قائلًا:

((أرغب أنا وأمك في أن نتحدث معك قليلًا)).

((عما ستتحدثان؟)) قالها الابن بصوت مرتفع حيث كان يضع السماعات على أذنيه.

قال الأب:

((نتحدث في بعض الأمور الخاصة بالعائلة)).

((تفضلا)). قالها الابن بصوت مرتفع أقرب ما يكون للصراخ.

مد شه جه كانغ يده وأخرج إحدى السماعتين من أذن ابنه اليمنى، وقال:

((لقد حدثت بعض التغييرات في الشهور الأخيرة، ولم نكن نرغب في أن نخبرك بها، خشية أن تؤثر على دراستك)).

((ماذا حدث؟)). سأل الابن وقد همَّ أن يخرج السماعة من أذنه اليسرى.

قال الأب: ((لا تقلق، كل ما في الأمر أنه بدءًا من الشهر الجاري سوف يوقف المصنع الذي أعمل به الورديات الليلية، وسوف يقوم المصنع بتسريح نصف زملائي الذين يزيد عددهم على ثلاثمائة عامل وعاملة، وإن كنت لا أخشى على نفسي، حيث إن مهارتي الفنية ستجعل المصنع في حاجة إلى جهودي. المشكلة في عمل والدتك، التي تتقاضى خلال الشهور الأخيرة ما يزيد على مائة يوان فقط، ولا يزال أمامها أربع سنوات حتى تبلغ سن التقاعد، فإذا تقدمت الآن بطلب للتقاعد المبكر، فسيكون بإمكانها الحصول على ثلاثمائة يوان شهريًّا، بل ويمكنها التمتع بهذا الراتب لمدة ثلاث سنوات كاملة)).

فسأل الابن: ((تقصد أنه يمكنها الحصول على راتب أكبر في حالة التقاعد المبكر؟)).

هزا رأسيهما بالإيجاب، فقال الابن:

((إذن فليكن التقاعد المبكر)).

((وهذا ما فكرت فيه أنا ووالدتك)). قال الأب.

((لتتقاعد إذًا)).

ثم أمسك الابن بالسماعة ووضعها في أذنه، في حين اكتفى شه جه كانغ ولي شيولان بالنظر إلى بعضهما البعض، قبل أن تقول لي شيولان:

((إن أوضاعنا المادية تدهورت مؤخرًا، بل إنها قد تتدهور أكثر في الأيام القادمة)).

فسألها الابن وقد اكتفى بوضع سماعة واحدة في إحدى أذنيه:

((ماذا تقولين؟)).

((أمك تقول بأن أوضاعنا المادية قد تدهورت مقارنة بما كانت عليه في السابق)). قال الأب.

فلوح الابن بيده وقال: ((لا عليكما، فإن الأوضاع الاقتصادية لبلادنا قد تدهورت خلال السنوات الأخيرة ولم تعد كما كانت في السابق)).

فجعل شه جه كانغ وزوجته لي شيولان ينظران إلى بعضهما البعض، ثم قال شه جه كانغ:

((دعني أسألك إذًا، لماذا عدت يوم أمس بالتاكسي؟)).

فاكتفى الابن بالنظر إلى والديه دون أن يجيب على السؤال، فتابع شه جه كانغ يسأله:

((لماذا لم تركب حافلات النقل العام؟)).

((الحافلات العامة تكون مزدحمة جدًّا)). رد الابن.

((مزدحمة جدًّا؟!)).

ثم أشار شه جه كانغ إلى لي شيولان وقال:

((أنا وأمك نركب هذه الحافلات المزدحمة يوميًّا، وكيف تخشى الزحام وأنت في ريعان شبابك؟)).

((أنا لا أخشى الزحام، المشكلة كلها في روائح الركاب الكريهة)).

ثم تابع الابن كلامه وقد قطب حاجبيه: ((أكثر ما أخشاه أن أشم روائح الركاب الكريهة، فالزحام يجبرك على أن تشم روائح جميع الركاب، حتى رائحة العطور تبدو كريهة وسط الزحام الشديد، ناهيك عن الريح الذي يخرجه بعضهم بين الحين والآخر)).

ثم اختتم الابن كلامه بقوله:

((كما أنني في كل مرة أركب فيها المواصلات العامة أشعر بالرغبة في التقيؤ)).

((التقيؤ؟)).

قالتها لي شيولان وقد أصابها الذعر، قبل أن تسأله:

((هل أنت بصحة جيدة يا حبيبي؟)).

((أنا بصحة جيدة)). رد الابن.

ثم قالت وهي تنظر إلى زوجها شه جه كانغ:

((هل تعتقد أنه ألم في المعدة؟)).

هز شه جه كانغ رأسه بالإيجاب، ثم قال لابنه:

((هل تشكو من ألم في المعدة؟)).

رد الابن وقد بدأ يضايقه سؤالهما عن صحته: ((قلت لكما أنني لست مريضًا)).

((وماذا عن كمية الطعام التي تتناولها يوميًّا؟)). سألت الأم.

((قلت لكما إنني لا أشكو من ألم في معدتي)). صرخ الابن.

تابع شه جه كانغ يسأله:

((وهل تنام جيدًا؟)).

ثم قال شه جه كانغ لزوجته:

((عدم أخذ قسط وافر من النوم قد يجعله يشعر بالرغبة في التقيؤ)).

مد الابن أصابع يديه العشرة وقال:

((أنام عشر ساعات يوميًّا)).

قالت لي شيولان وهي لا تزال قلقة على ابنها:

((يُفضَّل أن تذهب إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات)).

((قلت لكما إنني بصحة جيدة)).

قالها الابن، ثم هبَّ واقفًا وأضاف: ((كل لهذا لأنني عدت بالتاكسي مرة واحدة! أعدكما أنني لن أكررها ثانية)).

فقال شه جه كانغ:

((المشكلة ليست في الأجرة التي دفعتها للتاكسي يا بني، إننا فقط نشعر بالقلق لأجلك أنت، فأنت على وشك التخرج والالتحاق بالعمل، وعندما تكسب المال من كدّ يدك، ستدرك أنه يأتي بشق الأنفس، وعندها ستتعلم كيفية وأهمية الحفاظ عليه)).

((نعم)).

ثم تابعت لي شيولان:

((كما أننا لم نقل بأننا سنمنعك من استقلال التاكسي)).

((أنا بالتأكيد لن أكررها ثانية)).

قالها الابن بعد أن جلس على الأريكة، ثم أضاف:

((سأستقل سيارتي التي سأشتريها من مالي الخاص)).

ثم وضع الابن السماعتين في أذنيه، وقال:

((كما أن الكثير من زملائي دائمًا يستقلون سيارات التاكسي)).

وما إن سمعت لي شيولان هذا التعليق من ابنها حتى قالت لزوجها:

((يقول أن زملاءه يستلقون سيارات التاكسي)).

فرأت شه جه كانغ يهز رأسه بالإيجاب، ثم أضافت:

((ما دام أبناء الآخرين يستلقون سيارات التاكسي، فلماذا لا يكون ابننا مثلهم؟)).

فقال شه جه كانغ:

((أنا لم أقل إنني سأمنعه من استقلال التاكسي)).

وعندئذ بدا أن ابنهما كان يستمع لأغنية من الأغاني المحببة إلى قلبه، وقد كان يردد كلماتها ويتمايل مع موسيقاها. وما إن رأي شه جه كانغ ولي شيولان ابنهما يرقص مع الأغنية، حتى نظرا إلى بعضهما البعض وقد علت وجههما الابتسامة. وربما أنهما كانا على وشك مواجهة أيام صعبة في القريب العاجل، إلا أن ذلك كله لم يعد يشكل مصدر قلق بالنسبة لهما، بعد أن رأيا أن ابنهما شابًّا ناضجًا.

كتبت في 29–1–1995

((انتصار الزوجة))

1

بينما كانت لين خونغ تقوم بترتيب دُرج مكتب لي خان لين، وجدت بداخله مظروفًا كبيرًا تم طيه بعناية شديدة، ولم تكد تفتحه حتى وجدت بداخله مظروفًا آخر تم طيه بعناية أيضًا، ففتحته لتجد بداخله مظروفًا جديداً، وأخيرًا فتحت المظروف الثالث لتجد بداخله مفتاحًا.

لم يكن بذلك المفتاح المصنوع من الألومنيوم ثمة شيء غريب، إذًا فلماذا تراه محفوظًا بهذه العناية؟ أمسكت لين خونغ بالمفتاح، الذي أصابه السواد، فعلى ما يبدو أنه تم استعماله لسنوات طويلة، وقد ساعدها حجم المفتاح الصغير على الحكم بأنه ليس من نوعية المفاتيح التي تُستخدم لفتح أقفال الأبواب، فهو إما يستخدم لفتح أقفال الأدراج أو الحقائب. وقفت على الفور، تقدمت إلى طاولة الكتابة، وأدخلت المفتاح في فتحة قفل دُرج المكتب، فلم تتمكن من فتحه، ثم حاولت عبثًا إدخاله في أقفال الحقائب دون جدوى، جربته في جميع الأقفال الموجودة بالمنزل ولكن كل ذلك بلا جدوى، فانتهت إلى نتيجة اطمأنت إليها، وهي أن هذا المفتاح ليس له أدنى علاقة بالأقفال الموجودة بمنزلها، وأنه مجرد ضيف عابر يمر ببيتها.

وفي عصر ذات اليوم، تملك لين خونغ ابنة الخامسة والثلاثين شعور بالشك والحيرة والخوف في آنٍ، أمسكت بالمفتاح وجلست في الشرفة، وسطعت على جسدها أشعة شمس الظهيرة، جلست لمدة طويلة تحدق في الأفق البعيد، والشمس تتنقل من موضع إلى آخر على جسدها، وهي في حيرة شديدة من أمر المفتاح. دق جرس الهاتف، أسرعت وأمسكت بالسماعة، مكالمة من زوجها المسافر، يتصل من غرفته بأحد الفنادق التي تبعد عنها مسافة خمسمائة كيلو متر للاطمئنان عليها، قال الزوج:

((لين خونغ، إنه أنا لي خان لين، أريد أن أطمئنك بأنني قد وصلت واستلمت الغرفة، وكل شيء على ما يرام، فهل أنتِ بخير؟)).

هل أنتِ بخير؟ هي نفسها لا تعرف الجواب، ظلت في مكانها ممسكة بسماعة الهاتف، حتى سمعته يسألها:

((ألو، ألو، هل تسمعينني؟)).

((نعم سمعتك)). ردت لين خونغ.

((حسنًا، تصبحين على خير)). قال.

قُطع الاتصال، سمعت صوت صافرة تشير إلى أن الخط مشغول، وضعت السماعة وعادت إلى الشرفة، جلست تحدق في المفتاح. راحت تفكر في مكالمة زوجها، وهي تتساءل في نفسها إذا ما كانت مجرد مكالمة عادية ليؤكد لها أنه لا يزال موجود في حياتها.

وهو في الحقيقة كذلك، موجود بملابسه المعلقة أمامها في الشرفة، بابتسامته التي تظهر في الصورة المعلقة على الجدار، بالسجائر التي تملأ الطفاية، بالمكالمات التي تأتي من أصدقائه للسؤال عنه، فهم لا يعلمون أنه مسافر إلى تلك المدينة على مسافة خمسمائة كيلومترا، وقد تساءلوا باستغراب:

((ماذا؟ سافر في مهمة عمل؟)).

نظرت إلى المفتاح، ومضت تفكر في أن وجود زوجها في حياتها ينحصر الآن في هذا المفتاح، فماذا يخفي لها هذا المفتاح الأسود؟ أقرب الناس إليها يبدو أنه يخفي عنها سرًّا كبيرًا، تمامًا مثل هذا المفتاح الذي وجدته مخفيًّا في ثلاثة مظاريف، بدأت تدرك بأن هذا السر في طريقه الآن لأن ينكشف، وقد يتسبب كشفه في جرح مشاعرها. سمعت صوت أحدهم يصعد الدَّرج، أخذ صوت الأقدام يقترب شيئًا فشيئًا، ثم توقف الصوت عندما اقترب من باب شقتها، قبل أن يواصل الصعود.

وفي صباح اليوم التالي، قصدت لين خونغ من فورها جهة عمل لي خان لين، وأخبرت زميله في المكتب أنها تود أخذ شيء ما من دُرج زوجها. ولما كان زميله يعرفها، فلم يجد غرابة في أن تأتي لتأخذ شيئًا من درج زوجها، فأشار لها إلى المكتب القريب من النافذة.

أدارت المفتاح في قفل الدُّرج، ففُتح على الفور. وعندها توصلت إلى معرفة السر الذي كان يخفيه عنها زوجها، والذي وجدته في مظروف كبير به صورتان لإمرأة، الصورة الأولى تظهر فيها بمايوه تقف على أحد الشواطئ، والثانية صورة أبيض وأسود تظهر وجهها، وقد بدت المرأة التي في الصورة أصغر منها سنًّا، وإن لم تكن أكثر منها جمالًا. كما وجدت بداخل المظروف خمس رسائل موقعة باسم تشينغ تشينغ، وهو ما أغضبها كثيرًا، فهذا الاسم على ما يبدو اسم تدليل، فمضت تفكر في تلك السيدة التي تكتب لزوجها رسائل موقعة باسم التدليل، ثم ارتعشت يدها الممسكة بالرسائل، وإذا بالمحتوى مليء بالكلام المعسول، راحت تفكر في أن زوجها من المؤكد أنه يلتقي بصاحبة الرسائل، بل ومن المؤكد أنهما يتبادلان هذا الكلام المعسول من خلال الهاتف، وقد أخبرته السيدة في إحدى رسائلها أن التواصل بينهما بدءًا من اليوم سيكون من خلال هذا الرقم 4014548.

2

أمسكت لين خونغ بسماعة الهاتف، وطلبت الرقم 4014548. دق الجرس دقة واحدة قبل أن تسمع صوت إحداهن ترد:

((ألو)).

((أسأل عن السيدة تشينغ تشينغ)). قالت لين خونغ.

((نعم إنه أنا. فمن أنتِ؟)) ردت السيدة صاحبة الصوت.

سمعت لين خونغ صوت السيدة وكأن به حشرجة، وأحست بأن يدها التي تمسك بالسماعة ترتعش، هذا قبل أن تجيبها:

((أنا زوجة لي خان لين..)).

أعقب ذلك فترة صمت من جانب تلك السيدة، بينما سمعت لين خونغ صوت تنهيدة من خلال السماعة، فقالت لين خونغ:

((يا لك من امرأة وقحة، وسيئة السمعة و..)).

ثم سكتت لين خونغ ولم تعرف ماذا تقول، وأحست برجفة تسري في جسدها، هذا قبل أن تسمع صوت السيدة تقول:

((يجب أن توجهي هذا الكلام لزوجك)).

((وقحة! لقد هدمتِ أسرتي، يا لك من امرأة وقحة!)). صرخت لين خونغ في السماعة.

((أنا لم أهدم أسرتك، ولتطمئني أنني لن أفعل ذلك، فعلاقتي به لم تتطور إلى ذلك الحد، بل وستنتهي الآن، فأنا لا أرغب في الزواج منه، فليست جميع النساء مثلك..)). ردت السيدة.

ثم أغلقت السيدة الخط. بينما كانت لين خونغ لا تزال واقفة في مكانها ترتجف، وقد التمعت عيناها ببريق الدموع، وصوت صافرة الهاتف يرن في أذنها. ظلت على تلك الحالة بعض الوقت، قبل أن تضع السماعة دون أن تغادر مكانها بجوار الهاتف، وبعد لحظات أمسكت بالهاتف ثانية وطلبت الرقم 5867346، فسمعت صوت أحدهم يرد:

((ألو، ألو، منْ المتصل؟ تكلم)).

((إنه أنا لين خونغ..)). ردت لين خونغ.

((أهلًا لين خونغ، هل عاد لي خان لين؟)). قال صاحب الصوت.

((لا، لم يعُد بعد)). ردت.

((كيف لم يعُد حتى الآن؟ لقد سافر منذ عدة أيام؟ سأل الرجل صاحب الصوت. ثم استطرد يقول: حسنًا، ليست فترة طويلة، أذكر أنني التقيت به قبل ثلاثة أيام، ولكن فيمَ سافر هذه المرة؟ أليس أنه سافر للترويج لجهاز الفلتر الذي تنتجه الشركة التي يعمل بها؟ دعيني أصدقك القول بأن هذا الجهاز جودته رديئة، لقد أهداني لي خان لين واحدًا، فقمت بتجربته، بأن وضعت قدرًا من الماء المكرر من خلاله في كوب، وملأت كوبًا آخر بماء الصنبور، وكانت النتيجة أنني لم أجد ثمة اختلاف بين الماء في الكوبين من حيث الشكل أو الطعم)).

((هل تعرف تشينغ تشينغ؟))، قاطعته لين خونغ.

((تشينغ تشينغ؟))، قال الرجل.

ثم سكت برهة، بينما كانت لين خونغ تنتظر الجواب وهي تمسك بالسماعة، قبل أن يأتيها رده:

((لا أعرف صاحب/ بة هذا الاسم)).

فقالت لين خونغ وهي تحاول الحفاظ على هدوء صوتها وهي تتحدث معه:

((لي خان لين لديه خليلة، نعم إنه يعرف امرأة أخرى اسمها تشينغ تشينغ، وقد عرفت بهذا اليوم فقط، كما عرفت أنهما يلتقيان كثيرًا، ويتحدثان في الهاتف، ويتبادلان الرسائل الغرامية، كما أنني تحصلت على رسالة موجهة منها إليه، وعلمت أن علاقتهما بدأت قبل أكثر من عام..)).

((وأنا على علم بهذه العلاقة، غير أنني لم أكن أعلم أن اسمها تشينغ تشينغ، فهل يمكن أن تكوني قد أسأت الظن بهما، فربما يكون ما بينهما مجرد صداقة عادية.. عذرًا هناك من يطرق الباب، أرجو أن تنتظري قليلًا)). قال الرجل.

ثم ترك السماعة، وبعد لحظات ترامى إلى سمعها صوته يتحدث مع رجل آخر بالقرب من السماعة، هذا قبل أن يعود ويأخذ بالسماعة قائلًا:

((ألو)).

ثم طال صمته، وكانت تعلم أنه ينتظر أن تبدأه هي بالكلام، لكنها لا ترغب في مواصلة الحديث معه، فقالت:

((أرى أنه لا داعي للحديث الآن حتى يمكنك الترحيب بضيوفك)).

((حسنًا، لنتحدث فيما بعد)). قال الرجل.

ثم أغلق الرجل الخط، بينما ظلت لين خونغ واقفة في مكانها وهي تمسك بالسماعة، قبل أن تقع عيناها على رقم صديق آخر من أصدقاء زوجها، فطلبت الرقم 8801946، لتسمع صوت أحدهم يرد:

((ألو)).

((أهلًا، إنه أنا لين خونغ)).

((لين خونغ، كيف حالكِ؟ وكيف حال لي خان لين، بماذا ينشغل الآن؟)) قال الرجل.

فسكتت قليلًا، قبل أن تبدأه بالسؤال: ((هل تعرف تشينغ تشينغ؟))، سكت الرجل لفترة طويلة، الأمر الذي اضطرها إلى أن تتحدث هي قائلة: ((لي خان لين يعرف امرأة غيري)).

وهنا سمعت صوت الرجل يقول: ((مستحيل، لا يمكن أن يقوم لي خان لين بمثل هذه الفعلة، فأنا أعرفه جيدًا، ربما هي مجرد شكوك، أليس كذلك؟)).

((لديّ الدليل، لقد عثرت على رسالة منها إليه، وكذلك صورها التي أرسلتها له، وقد اتصلت بها قبل قليل..)). قالت لين خونغ.

((لا علم لي بذلك)). قال الرجل.

ثم أحست لين خونغ بتغير صوته، فعرفت أنه لا يرغب في الحديث معها حول هذا الموضوع، فأنهت المكالمة. وعادت إلى حيث كانت بالشرفة، ولم تكد تجلس بالشرفة حتى ذرفت عيناها بالدموع. ومضت تفكر في أنه لا يزال هناك عدد من أصدقائه لم تتصل بهم، ولكنها لا ترغب في الاتصال بهم، فعلى كل

حال لن يتعاطفوا معها على حساب صديقهم.

وقبل سنوات، كان لديها هي أيضًا صديقاتها المقربات: جاو بينغ، جانغ لي ني وشين نينغ، ولكنها توقفت عن التواصل معهن منذ زواجها منه، واتخذت من أصدقائه وزوجاتهن أصدقاءَ لها، تتحدث معهم وتخرج مع زوجاتهم للتسوق والنزهة. حتى حلت زوجات أصدقائه محل صديقاتها جاو بينغ، جانغ لي ني وشين نينغ، لتجد نفسها الآن بدون صديقات.

وأصبحت لا تعلم عن صديقاتها جاو بينغ، جانغ لي ني وشين نينغ شيئًا، فقط لا تزال تحتفظ برقم هاتف صديقتها شين نينغ، والذي كانت قد أخذته منها عندما التقتا مصادفة قبل أكثر من عام. فتركت لها شين نينغ رقم هاتفها، فسجلته لين خونغ في دفتر، وها هي ستهاتف صديقتها للمرة الأولى منذ سنوات.

رد عليها زوج صديقتها شين نينغ، وطلب منها أن تنتظر قليلًا، لحظات وأمسكت شين نينغ بالسماعة وقالت:

((ألو، منْ المتصل؟)).

((إنه أنا لين خونغ)). ردت لين خونغ.

فقالت صديقتها وهي مسرورة بسماع صوت لين خونغ:

((سعيدة جدًّا بسماع صوتك، لقد اتصلت بك أكثر من مرة ولم يرد أحد، فهل أنتِ بخير؟ لم نتقابل منذ فترة طويلة، منذ أكثر من عام تقريبًا، أليس كذلك؟ هل لديك أي أخبار عن صديقاتنا جاو بينغ وجانغ لي ني؟ فأنا لم ألتقِ بهما منذ سنوات، وهل أنتِ بخير؟)).

((لستُ بخير)). ردت لين خونغ.

سكتت شين نينغ قليلًا قبل أن تسأل صديقتها:

((ماذا قلتِ؟)).

ردت لين خونغ وهي لا تتمالك نفسها من البكاء:

((لقد خانني زوجي، وتعرَّف على امرأة أخرى..)).

لم تستطع لين خونغ أن تكمل كلامها إلى صديقتها، فسمعت شين نينغ تسألها:

((ماذا حدث بالضبط؟)).

فقالت لين خونغ: ((بالأمس، وبينما كنت أرتب دُرج مكتبه، وجدت بداخله مظروفًا تم طيه بعناية شديدة، وما إن فتحته حتى وجدت بداخله مظروفين آخرين، ثم وجدت بداخل المظروف مفتاحًا صغيرًا، ساورني الشك في أمر المفتاح، فأمسكت به وجربته في جميع الأقفال الموجودة بالمنزل، فلم يفتح أي منها، ففكرت في أنه ربما يكون يستخدمه لفتح دُرج مكتبه بالعمل. وبالفعل ذهبت صباح اليوم إلى مكتبه، لأعثر بداخله على رسالة منها، وكذلك صورتين لها)).

وهنا سمعت صوت صديقتها شين نينغ تسبه: ((حقير)).

وفي تلك اللحظة أحست لين خونغ أنها أخيرًا وجدت من يتعاطف معها ويقف في صفها، وأنه أصبح بإمكانها الآن التنفيس عما بداخلها من شعور بالظلم والحزن والغضب، فقالت:

((لقد أعطيته كل شيء، لم أعد أفكر في نفسي أبدًا، فقط يشغلني التفكير فيه، في الطعام الذي أعده له، في الملابس التي يرتديها، فمنذ زواجنا ضحيت بنفسي لأجله، وضعت حياتي كلها بين يديه، لكنه خانني

بفعلته هذه..)).

وهنا لم تتمالك نفسها وانفجرت باكية، فسألتها شين نينغ:

((وماذا ستفعلين؟)).

((لا أعرف)). ردت باكية.

فقالت شين نينغ: ((إذًا لتسمعي نصيحتي، في هذا التوقيت بالذات يجب ألا يراكِ ضعيفة أو طيبة، يجب أن تعاقبيه على فعلته، يجب أن تتوقفي من اليوم عن البكاء أمامه، وأن تظهري أمامه قوية وبوجه عابس، لا تعيريه أدنى اهتمام، لا تساعديه في إعداد الطعام أو غسل الملابس، دعيه يخدم نفسه بنفسه، امنعيه من النوم على السرير، دعيه ينام فوق الأريكة، لمدة عام على الأقل. تأكدي من أنه سيأتي ويتوسل إليكِ، ويركع أمامك، وقد يصفع نفسه ندمًا على ما فعل، لا تتأثري بهذا كله، اعلمي أنه قد يقسم لك مرات ومرات، لا تصدقيه، فكما يقول المثل: ((لا أمان للرجال)) اجعليه يندم على خطأه في حقك، ويعيش أيامًا صعبة، حتى يفضل الموت على أن يعيش هذه الأيام الصعبة بسبب خيانته لكِ!)).

3

مضت الأيام ، وعاد لي خان لين من سفره، ليجد زوجته لين خونغ جالسة في الشرفة، وقد تجاهلت عودته ودخوله الشقة ولقيته متجهمة. وضع حقيبته وتوجه إليها في الشرفة، رماها بنظرة غاضبة بسبب عدم اهتمامها بعودته من السفر الطويل، سألها:

((ماذا حدث؟)).

رآها تحدق في السجادة المفروشة في الشرفة، وقد تركته يقف إلى جوارها ينتظر ردها دون جدوى. عاد إلى الأريكة في حجرة الاستقبال، فتح الحقيبة وأخرج منها الملابس المتسخة، وألقى بها فوق الأريكة، ثم التفت إليها، ليراها لا تزال مخفضة رأسها تحدق في السجادة، فقال غاضبًا:

((ماذا بكِ؟)).

تململت في مكانها في الشرفة، استدارت نحو الجهة المقابلة، وهو لا يزال في حجرة الاستقبال منشغلًا بترتيب الحقيبة، وقد أخرج جميع ما كان بها من أغراض ووضعها فوق الأريكة، هذا قبل أن يستشيط غضبًا ويصرخ في وجهها:

((اللعنة عليكِ، ماذا أصابكِ؟ كيف تستقبلينني بهذا الوجه المتجهم فور عودتي من السفر، هل أخطأت في حقك أيتها ال-...)).

سكت فجأة عندما رآها تمسك في يدها بمفتاح صغير، أحس بضجيج قوي يطنُّ في أذنيه، انتظر في مكانه لبعض الوقت، قبل أن يتوجه إلى غرفته ويفتح درج المكتب، ليجد بداخله مجلة مطوية في مكانها كما تركها، عبث بيده قليلًا فلم يجد المظروف الذي كان يضعه إلى جانب المجلة، عندها أحس بضيق تنفس، وقف أمام النافذة لمدة طويلة، ثم خرج من الغرفة بخطوات متثاقلة قاصدًا الشرفة، سألها وهو يخفض رأسه:

((هل دخلت غرفة المكتب؟)).

لم ترد عليه، ظلت في مكانها في الشرفة وكأنها لم تسمعه، رمقها بنظرة غاضبة وقال:

((هل عثرتِ على رسالة تشينغ تشينغ؟)).

ارتعشت لين خونغ، تردد لي خان لين قليلًا قبل أن يضع يده على كتفها، فارتعشت بشدة ثم أزاحت يده عن كتفها، سحب يده ووقف قريبًا منها، ثم قال وهو يضع يده في جيبه:

((لتعلمي أنني تعرفت إلى تشينغ تشينغ قبل عامين، كان ذلك في بيت أحد أصدقائي، وهي ابنة عم صديقي هذا، وكثيرًا ما كنت أقابلها في بيته، كما تقابلنا مصادفة في الشارع، ومنذ ذلك الحين بدأنا نتقابل كثيرًا. وهي الآن تقيم مع والديها، وأنا أقيم معكِ، فالظروف لا تخدمنا لكي نكون معًا، أقصد أنه لا توجد تلك الظروف المناسبة لإقامة تلك العلاقة. نتقابل فقط في دور السينما والحدائق، وكذلك في الطرقات. والعلاقة بيننا لم تتعد القبلات..)).

رأى الدموع تنهمر من عينيها، فأخرج يده من جيبه ووضعها على كتفها، فصدرت منها حركة أجبرته على أن يسحب يده ثانية، ثم قال وهو يمسح على جبهته:

((هذا كل ما كان بيننا، ولنفترض أنكِ لم تكتشفِ علاقتنا، فإنها لم تكن لتتطور أكثر من ذلك، فأنا حريص جدًّا على أسرتي، ولا يمكن أن أهدم هذا البيت الذي أسسناه أنت وأنا معًا)).

وقفت لين خونغ فجأة، وهرولت إلى غرفة النوم، ثم أغلقت الباب. بينما ظل لي خان لين واقفًا في مكانه، وبعد دقائق، توجه إلى باب غرفة النوم، وطرق عليه طرقتين خفيفتين، ثم قال:

((من اليوم فصاعدًا، سأقطع علاقتي بتشينغ تشينغ)).

4

فكرت لين خونغ في نفسها: إنه لم يتوسل لي، ولم يركع أمامي، ولم يصفع نفسه، ولم يُقسم لي، حتى إنه لم يُبْدِ ندمه على ما فعل. ولكنه نام على الأريكة، وهذه هي النقطة الوحيدة التي صدقت فيها صديقتي شين نينغ. وقبل أن ينام على الأريكة، كان قد وقف أمام السرير لوقت طويل، كالتاجر الذي يقف أمام نوعين من نفس البضاعة يتفحصهما لاختيار الأفضل بالنسبة له، حتى اختار في النهاية النوم على الأريكة.

كان اختياره للنوم على الأريكة، يعني أنه اختار الصمت، بدأ يفصل حياته عنها، لم يعد يتحدث معها في موضوع تشينغ تشينغ، كان يقيم معها في نفس المكان كأحدهم يشارك صديقه السكن، وليس كزوج يقيم مع زوجته، كان يعيش معها وهو حذر، يتحرك دون أن يصدر منه صوتا يزعجها، لا يفتح التليفزيون، حدد إقامته فوق الأريكة، إما جالسًا أو راقدًا، كان يقضي وقته في البيت في قراءة الكتب، هذا الرجل الذي لم تره يومًا يقرأ كتابًا، أصبحت يده لا تفارق الكتب.

كان ما إن تقع عيناه عليها، حتى يترك الكتاب الذي بيديه، ويحدق فيها، يتأملها في جميع حركاتها وتصرفاتها، وفي تلك اللحظات يخرج من تلك العوالم الخيالية التي كان مشدودًا إليها في الكتاب، ويتوه في العالم الواقعي.

بدأ يغضبها صمته، ذلك الصمت الطويل الذي كان يشمل البيت كله، أتُرى أنه يستغل هذا الصمت ليخدعها حتى يتجاوز هذه الأزمة؟ المشكلة أنها لم تعد تطيق صمته، فيجب ألا تجعله يستمتع بحياة هانئة. فهل يمكن أن تمر خيانته لها بهذا الحذر والحرص الذي يفرضه على نفسه؟

بدأت تستفزه، فكانت ما إن تراه جالسًا على الأريكة، ممددًا قدميه على الأرض، حتى تقصد الشرفة، وبينما هي في طريقها إلى هناك تركل قدميه، وكأنهما تعيقان طريقها. تجلس في الشرفة تنتظر ردة فعله على ما حدث، تنتظر طويلًا دون جدوى، حتى مجرد صوت يعبر به عن الوجع الذي أحدثته الركلة. وهنا تضطر للعودة إلى غرفة نومها، وفي طريق عودتها ترى قدميه منكمشتين فوق الأريكة.

أخذت تواصل استفزازها له، فما إن يأتي الغروب، حتى تقصد الأريكة، وتلقي بلحافه وملابسه وكتبه على الأرض، ثم تجلس على الأريكة لمشاهدة التلفاز.

يحدث هذا كله في الوقت الذي يكون هو جالسًا فيه على نفس الأريكة، فما إن تفتح هي التلفاز، حتى يقوم من على الأريكة قاصدًا الشرفة، ويجلس على الأرض ويواصل القراءة، يقوم بهذا كله ليعبر لها عن تواضعه، وأنه لا يستحق أن يجلس معها على نفس الأريكة لمشاهدة التلفاز. فيجلس على أرضية الشرفة الصلبة، ينهض بين الحين والآخر للقيام ببعض التدريبات لقدميه التي تتألم من الجلوس على الأرض، ثم يعود إلى كتابه. هكذا حتى تغادر هي الأريكة وتعود إلى غرفتها، عندها يعود هو أيضًا إلى الأريكة، يقوم بترتيب أغراضه التي ألقت بها على الأرض، ثم يتمدد على الأريكة حتى يدخل في النوم.

تجاوز صمته حدود صبرها، وقد باءت جميع محاولاتها لاستفزازه بالفشل. حتى اضطرت في نهاية الأمر إلى أن تهجر السرير، بدأت ترقد على الأريكة لمشاهدة التلفاز حتى يغلبها النوم، تنام حتى طلوع الصباح، وبالرغم من أن نومها على الأريكة كان مكيدة من مكائدها، إلا أنها كانت راضية بذلك.

لقد احتلت مكان نومه، وتركت السرير فقط لكي تغريه باستغلال هذه الفرصة ليعود إلى غرفة النوم، وعندها تجد الفرصة المناسبة للشجار معه. إلا أنها كانت ما أن تستيقظ من على الأريكة عند طلوع الصباح، حتى تجده نائمًا على الكرسي يتوسد طاولة الطعام.

كان يقضي أوقاته في المنزل في هدوء وحرص شديد، فيبدو أنه كان يعاقب نفسه بنفسه، إلا أن المشكلة كانت في أن هذه الطريقة في العقاب كانت تزعجها كثيرًا، فكانت تحبس دموعها وتكتم غضبها الشديد تجاهه. ولم تعد تنتظره أن يأتي ويتوسل إليها ويركع أمامها، لم تعد تنتظر أن يقوم بأي من تلك الأفعال التي ذكرتها لها صديقتها شين نينغ. كانت فقط تتمنى أن تنشب بينهما مشاجرة عنيفة، وحبذا لو تطور الأمر إلى الاشتباك بالأيدي.

ولكنه كان يرفض أن يمنحها هذه الفرصة، كان يرفض جميع خياراتها لمعاقبته على فعلته، كان يحكم على نفسه بنفسه، ويلتزم بما يصدره من أحكام وينفّذها في هدوء، حتى جعلها تشعر بأنه بدأ يعتاد على هذه الحياة الرتيبة، بل ويرتاح لها. كان يسبقها صباح كل يوم إلى العمل، ويعود بعدها عند الغروب، ولم تكن تجد غرابة في ذلك؛ لأن جهة عمله كانت تبعد عن جهة عملها، وقد كان فيما مضى يسبقها إلى العمل صباحًا، ويعود بعدها. كان يتناول غداءه في العمل، أما العشاء فكان يتناوله في مكان آخر لا تعرفه، فهي على كل حال لم تعد تساعده في إعداد العشاء. وكان بعد عودته إلى المنزل مساءً، لا يقصد المطبخ لإعداد العشاء لنفسه، حتى إنه كان لا يلتفت إلى المطبخ، وعندها كانت تعرف أنه قد تناول العشاء خارج المنزل. كانت تراه فقط يجلس فور عودته إلى المنزل على الأريكة، ممسكًا بكتاب ما. كان ينتهي من الكتاب تلو الكتاب، هكذا حتى بدأ يربك حياتها، ويجعلها تبدو مضطربة طوال الوقت، في حين أنه يبدو ناعم البال بحياته الجديدة. هكذا حتى بدأت تشتاط غضبًا، وتعض على أسنانها، لكنها لم تكن قد اهتدت بعد إلى طريقة مناسبة للتنفيس عن غضبها.

وعند غروب شمس ذلك اليوم، وبينما كانت تقف في الشرفة، رأته خارجًا من أحد المطاعم أسفل البناية التي يقيمان بها، فعرفت أخيرًا أين كان يتناول عشاءه خلال الأيام الماضية. وقد أغضبها ذلك كثيرًا، فبينما كانت هي تقسو على نفسها بإنفاق القليل من المال على الطعام والشراب، كان هو يتردد على المطعم مستمتعًا بحياة البذخ التي لا تتناسب مع ظروفه وإمكاناته. نزلت على الفور إلى المطعم، وعلى الرغم من أنها كانت قد تناولت العشاء، إلا أنه قررت أن تتناوله للمرة الثانية في المطعم، التقت به على الدرج، مرت من جانبه دون أن تعيره اهتمامًا، ومضت في طريقها على الدرج مسرعة إلى نفس المطعم الذي رأته يخرج منه منذ قليل، طلبت بعض الطعام وزجاجة شراب، ولم تكد تتناول القليل من الطعام، حتى لم تطاوعها معدتها في تناول المزيد.

وبعد أن تناولت ثلاث وجبات في المطعم، لم يهن عليها المال الذي كانت تدفعه في المطعم، وكانت قد سحبت مبلغًا من مدخراتهما القليلة في البنك، وقد كان منزلهما لا يزال في حاجة إلى الكثير من الأغراض الضرورية التي تحتاج لهذا المبلغ. وهذا ما اضطرها إلى التوقف عن تناول الطعام في المطعم، وعادت كما كانت تعد لنفسها وجبة عشاء بسيطة في البيت.

إلا أنها ما إن رأته من الشرفة يتردد على المطعم، حتى دفعها غضبها إلى أن تعود إلى المطعم ثانية، هكذا حتى تصادفا ذات يوم في ذات المطعم. وكانت يومها ما إن دخلت باب المطعم حتى وجدته بالداخل يتناول طبقًا من المعكرونة، فجلست على طاولة على مسافة بعيدة منه، وقد انتبهت إلى الزبائن الآخرين من حوله تمتلئ طاولاتهم بما لذ وطاب من الطعام والشراب، فيما كان هو منكفئًا على طبق المعكرونة، فأحست لحظتها بشيء من الضيق.

وفي ذات يوم، وبينما كانت تعد لنفسها العشاء في المنزل، أعدَّت له وجبة لشخصين، ووضعت طبقًا فارغًا وزوجًا من عصيّ الطعام في موضع واضح بالقرب من الأواني الممتلئة بالطعام على المائدة، وما إن انتبه إلى أنها قد أعدت له العشاء، حتى لمعت عيناه، وأخذ ينظر إليها مترددًا، للتأكد مما إذا كان هذا

الطعام فعلًا له، وعلى الرغم من أنه كان قد تناول المعكرونة في المطعم، إلا أنه جلس على الطاولة وأتى على الوجبة كاملة.

وعندما انتهى من تناول العشاء، كانت قد عادت إلى غرفة نومها وأغلقت الباب. وبينما كانت ترقد على السرير، سمعته يفتح الباب، ويدنو من السرير حتى جلس على حافته، وقال:

((هل يمكن أن نتحدث قليلًا؟)).

لم ترد عليه، فانتظر قليلًا قبل أن يعيد عليها نفس السؤال:

((هل يمكن أن نتحدث قليلًا؟)).

ظلت صامتة، وإن كانت تتمنى بداخلها ألَّا يتوقف عن الإلحاح عليها، فعليه أن يلوم نفسه على ما وقع منه، وأن يذرف الدموع من شدة الندم، يركع أمامها ويُقسم لها ألَّا يعود لذلك ثانية كما حدثتها صديقتها شين نينغ، أن يكرر على مسامعها كل ما يعبر عن الندم والاعتراف بما وقع منه، وبالرغم من أنها لن ترد عليه مهما توسل إليها، إلا أنه يجب أن يفعل هذا كله، ولكنه اختصر ذلك كله في قوله لها: ما رأيك أن نتحدث قليلًا.

طالت جلسته على حافة السرير، ولما أن رآها مصرة على السكوت، نهض من مكانه وتقدم حتى سمعته يغلق الباب وراءه بلطف، عندها استسلمت لدموعها، وهي تراه يخرج من الغرفة دون أدنى تحمل للمسئولية. ثم عاد إلى الصالة وجلس على أريكته، وكأن شيئًا لم يحدث.

5

استمر الخلاف بينهما ستة وعشرين يومًا، حتى نفد صبره، فتحدث إليها قائلًا: إن جميع مفاصله باتت تتألم، ورقبته لم تعد قادرة على الحركة بشكل طبيعي، ومعدته أيضًا، لقد تبدل كل شيء إلى الأسوأ بسبب هذه الحياة المزعجة، ثم قال:

((يجب أن تنتهي هذه الحياة إلى غير رجعة)).

كان يتحدث بصوت مرتفع يرن في أرجاء المكان، فلم يعد يتحدث إليها همسًا، ولم يعد يتحرك على أطراف أصابعه، وقف في مواجهتها وأخذ يلوِّح لها بيده، ثم قال بلهجة الواثق من نفسه:

((لقد عاقبت نفسي بنفسي، ولم يشفع لي ذلك عندك حتى تسامحيني، اعلمي أنه إذا استمر هذا الوضع بيننا، فلا أنتِ ولا أنا بإمكاننا تحمل هذا العذاب، لقد سئمت هذه الأيام الصعبة، ولم يعد بإمكاني الصبر بعد اليوم، فليس أمامنا سوى...)).

((ليس أمامنا سوى الطلاق)). توقف قليلًا قبل أن يكمل كلامه.

وكانت لين خونغ تديره ظهرها وهو يتحدث، إلا أنها ما إن سمعته ينطق كلمة الطلاق، حتى استدارت نحوه فجأة وقالت:

((إياك أن تفكر في الطلاق! لقد جرحتني، ولم تدفع الثمن بعد، وتفكر في الهرب، تريد أن تهرب مع تشينغ تشينغ بعد خيانتك لي، لن أمنحك هذه الفرصة، وسأظل متمسكة بك حتى آخر يوم في حياتك..)).

رأته وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، فأدركت على الفور أنه لا يمانع في أن تتمسك به حتى يشتعل رأسه شيبًا، أو حتى آخر يوم في حياته، بل وإنه يتمنى ذلك. مما دفعها لأن تسكت على الفور، ظلت واقفة في مكانها بعض الوقت وهي لا تعرف ماذا تفعل، حتى بدأت الدموع تسيل من عينيها، ثم غلبها شعور بالظلم. فهل تحملت كل هذا العذاب لأجل هذه الابتسامة، بعد أن كانت تنتظره يأتي إليها نادمًا، أو على الأقل تراه يذرف الدمع وهو يعاقب نفسه أمامها، أو أن يصدر منه ما يجعلها تشعر بالندم على خيانته لها، لكنها لم ترَ منه أي شيء من هذا، بل وتجرأ على أن يقف في مواجهتها ويقول بلهجة الواثق من نفسه:

((ليس أمامنا سوى الطلاق)).

ثم قالت وهي تكفكف دموعها بيدها:

((فليكن الطلاق)).

لاحظت اختفاء تلك الابتسامة التي كانت ترتسم على وجهه، قبل أن تتركه إلى غرفتها وتغلق وراءها الباب بالمفتاح، وتلقي بنفسها فوق السرير حتى غلبها النوم.

6

سارا معًا إلى المكتب الذي شهد تسجيل عقد زواجهما، وها هما يقصدانه الآن للمرة الثانية لفسخ العقد. سارا بمحاذاة السور الواقع على جانب الطريق، ولي خان لين يتقدم لين خونغ، كان يسير بضع خطوات ثم يتوقف وينتظرها حتى تلحق به، ثم يتابعان السير في اتجاه المكتب وقد غمرهما الصمت، ولي خان لين خافض الرأس، مقطب الحاجبين، مهموم. فيما كانت لين خونغ تتبعه مرفوعة الرأس، وقد سلمت شعرها للرياح تعبث به، وبين الحين والآخر ترتسم على وجهها ابتسامة حزينة.

مرا على الكثير من المتاجر المعروفة لهما، والتي كانا دخلاها معًا من قبل، كما مرا بالعديد من محطات النقل العام، والتي كانا قد انتظرا فيها معًا الحافلات العامة.. أخذا يقطعان هذا الطريق الذي يحفل بالكثير من الذكريات التي جمعتهما معًا. وما إن بلغا أحد المقاهي الواقعة في ذلك الشارع والذي يسمى ((مقهى الأصيل))، حتى توقف لي خان لين وانتظر لين خونغ حتى لحقت به، إلا أنه لم يواصل السير هذه المرة، حيث تذكر هذا المقهى الذي كانا قد جلسا فيه معًا قبل سنوات عقب تسجيل عقد الزواج، تذكر أنهما كانا قد جلسا على الطاولة القريبة من النافذة المطلة على الشارع، وقد طلب هو كوبًا من القهوة، وطلبت هي كوبًا من المشروبات الغازية (سبرايت)، مما جعله يستوقفها قائلًا:

((ما رأيك أن نتناول شيئًا في هذا المقهى؟)).

ولما كانت سبقته بعد أن توقف، فقد التفتت ورفعت عينيها إلى مصابيح النيون المعلقة على مدخل البناية، والتي كُتب عليها بحروف مضيئة ((مقهى الأصيل))، فقبلت دعوته، ودخلا المقهى معًا. ولما كان الوقت بعد الظهر، فلم يكن بالمكان إلا عدد قليل منتثر هنا وهناك، فاختارا الجلوس على الطاولة المطلة على الشارع، وطلبا نفس مشروبات المرة الأولى، كوبًا من القهوة وكوبًا من المشروبات الغازية (سبرايت)، ومضيا يتذكران ذلك اليوم الذي جلسا فيه في هذا المكان قبل سنوات للاحتفال بعقد زواجهما.

بدأها لي خان لين بالابتسامة، فارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة، إلا أنهما تراجعا على الفور وسحب كلٌ منهما ابتسامته وراح ينظر بعيدًا عن صاحبه، فنظر لي خان لين إلى خارج النافذة، بينما أخذت لين خونغ تطوف بنظرها داخل المقهى، فوقع بصرها على امرأة شابة ترتدي سترة حمراء زاهية، كانت تجلس بمفردها إلى اليمين من طاولتهما وعيناها لا تفارقهما. كما أحست لين خونغ بأن هناك شيئًا غريبًا يعلو وجه تلك الشابة، وهنا تذكرتها لين خونغ، إنها تشينغ تشينغ.

وأخذت لين خونغ تنظر إلى زوجها، بينما ألقى هو نظرة خاطفة على تشينغ تشينغ، وقد بدا أنه لم يكن يتوقع أن يراها هنا، فعَلَا وجهه شعور بالدهشة. وفي اللحظة التي كان يدير فيها وجهه إلى لين خونغ، إذا بها تنظر إليه نظرات فهمَ منها أنها تعرفت على تشينغ تشينغ، ثم ابتسم ابتسامة مغتصبة.

((أنت الذي أخبرتها)). قالت لين خونغ.

((ماذا تقصدين؟)). سأل لي خان لين.

((أخبرتها بأننا جئنا لإنهاء إجراءات الطلاق، فتبعتنا إلى هنا)). قالت.

((كلا)). رد لي خان لين.

تابعت لين خونغ وقد بدأ الحزن يتسلل إلى داخلها:

((لم يكن هناك داعٍ للاستعجال..)).

رد على الفور: ((كلا))، وأضاف: ((فهي ليس لديها أدنى فكرة عن هذا الموضوع)).

أخذت لين خونغ تدقق النظر في وجه لي خان لين، فإذا بها تراه يبدو واثقًا من ردوده عليها، فبدأ يسيطر عليها إحساس شديد بأنها تصدقه فيما يقول. ثم صرفت نظرها إلى تلك الشابة، والتي كانت هي أيضًا مشغولة بالنظر إليها، ولم تكد لين خونغ تصرف نظرها إليها، حتى أدارت تلك الشابة وجهها بعيدًا عنهما، فقالت لين خونغ لزوجها:

((إنها لم تحول نظرها عنك لحظةً منذ قَدِمْنا، فيجب أن تذهب لتحيتها)).

((لن أفعل)). رد لي خان لين.

((لقد أوشكنا على الانفصال، فماذا تخشى؟)). تابعت لين خونغ.

كرر لي خان لين: ((لن أفعل)).

نظرت إليه لين خونغ، وقد حملها ثباته هذا على أن تشعر فجأة بالحميمية والدفء. ثم راحت تنظر إلى تشينغ تشينغ، لتجدها وقد رفعت نظرها عنهما، بينما كانت يدها تعبث بالكأس، وهي تضع ساقًا على ساق، وبدأت حركاتها تفتقد الحرية التي كانت عليها منذ قليل. فأعادت لين خونغ النظر إلى زوجها، فإذا به يراقب حركة الشارع من خلال النافذة، وقد بدا على وجهه شيء من الوقار. فجعلت لين خونغ تنظر إليه بعض الوقت، ثم قالت:

((قبِّلني)).

التفت إليها لي خان لين، وقد بدا على وجهه علامات الدهشة من طلبها، فتابعت تقول:

((قبّلني، فقد تكون القبلة الأخيرة بيننا قبل الانفصال)).

هز لي خان لين رأسه موافقًا، ومال عليها قليلًا، قبل أن تبادره لين خونغ بقولها:

((أريدك أن تقبلني وأنت جالس إلى جواري)).

قام لي خان لين وجلس على مقربة منها، ووضع قبلة على وجنتها، قبل أن تقول:

((احتضنّي)).

احتضنها لي خان لين، وإذا به يحس بشفتيها تلامس شفتيه، ثم غابا معًا في عناقٍ حار.

هذا بينما كانت لين خونغ تراقب تشينغ تشينغ، التي كانت تسترق النظر إليهما بين الحين والحين، وهي تعبث بالكوب الذي بيدها، قبل أن تراها لين خونغ تقف مسرعة وتغادر المقهى على عجل. ولم تكد لين خونغ تراها تمر بجوارهما في طريقها إلى الباب، حتى غمرها شعور بالسعادة، وأحست حينها أنها قد انتصرت في هذه المعركة. انتصرت أخيرًا بعد ستة وعشرين يومًا عاشتها تتألم بين الحزن والغضب والأرق والهواجس.

لحظات ووجدت نفسها تسحب يدها من حوله، وتبعد شفتيها عن شفتيه، ثم قالت والابتسامة تضيء وجهها:

((هيا بنا إلى المنزل)).

كتبت في 9–9–1995

الشيخ القعيد

داخل أحد المحال الصغيرة لبيع الأطعمة والفواكه الواقعة على ناصية الطريق، برز وجه عجوز نالت منه السنين، السنون والشهور، علب البسكويت، الشعرية سريعة التحضير، الحلوى، السجائر والمشروبات، بدت جميعها كلوحة تقويم سنوي عتيقة معلقة على أحد الجدران، بينما يظهر أسفل ذلك الوجه الحزين جسد وأربعة أطراف، لشيخ يدعى العم لين ده شون.

كان العم لين ده شون يجلس على كرسيه المتحرك في صمت، يتسلى بمراقبة حركة الطريق خارج محله الصغير من خلال النافذة الصغيرة المفتوحة. رأى بين ما رأى زوجان شابان يقفان عند ممر المشاة في الجهة المقابلة، كانا يقفان وبينهما طفل صغير في حوالي السادسة أو السابعة من عمره، يرتدي معطفا سميكا، وقبعة حمراء ويلف حول رقبته وشاحاً أحمر. وبالرغم من أن الوقت في فصل الربيع، إلا أن الطفل كان لايزال يرتدي الملابس الشتوية الثقيلة.

وقف الثلاثة في الجهة المقابلة من الشارع، أمام بوابة إحدى المستشفيات، وقفوا في صمت بين جموع الداخلين والخارجين من البوابة. كان الأب يقف هنالك واضعاً يديه في جيبي بنطاله، وعيناه لا تنزل من على بوابة المستشفى، بينما كانت زوجته تمسك بيدي الطفل، وعيناها لا تنزل هي أيضاً عن البوابة، فقط كان الطفل منشغلاً بمراقبة حركة الشارع، ويده لا تفارق يد أمه، وقد بدت عيناه معلقتان بالشارع، فلم يكن يتوقف عن النظر هنا وهناك والإشارة إلى أشياء متفرقة في الشارع، كما بدا أنه كان يتحدث إلى والديه عما يرى، إلا أنهما كانا لا يزالان متسمران في موضعهما لا يتحركان قيد أنملة.

بعد لحظات، توجه والدي الطفل صوب بوابة المستشفى، وقد رأى لين ده شون من موضعه داخل المحل البسيط، ممرضة ممتلئة الجسم تسير معهما، قبل أن يتوقفوا هنالك ويدور بينهم حديث قصير. بينما كان الطفل لايزال يميل بجسده تجاه الشارع، ويتطلع إلى الشارع الذي يعج بالرائحين والغادين في سعادة.

أنهت الممرضة حديثها معهما، ثم استدارت إلى داخل المستشفى، كما استدار والدي الطفل، وعبروا الشارع وهما يمسكان بيدي الطفل في حذر شديد. حتى أتوا إلى مكان قريب من محل العم لين ده شون. وهنا ترك الرجل يده ابنه وتوجه إلى نافذة محل العم لين ده شون، وألقى نظرة إلى داخل المحل. عندها رأى لين ده شون وجه شاب نبت شعر ذقنه بغزارة، وعينان متورمتان من قلة النوم، وياقة قميص أبيض تحولت إلى اللون الأسود. فسأله العم لين ده شون:

((ماذا تريد؟))

((أعطني برتقالة.)) قال الشاب وهو ينظر إلى سلة البرتقال داخل المحل.

((برتقالة؟)) سأله لين ده شون وقد شك في طلب الشاب.

((بكم الواحدة؟)) سأل الشاب وهو يمد يده ليأخذ البرتقالة.

((أعطني اثنين ماو[8].)) قال لين ده شون بعد أن فكر للحظات.

مد الشاب يده بالمبلغ المطلوب، بينما انتبه لين ده شون إلى بعض الخيوط التي تتدلى من كم قميص الشاب.

وما أن انتهي الوالد من شراء البرتقالة، حتى نظر إلى زوجته وابنه، فإذا بهما يلعبان عند ممر المشاة لعبة النط والقفز، كان الابن يرفع قدمه عالية ويحاول أن ينزل بها على قدم والدته، في الوقت الذي

تسارع فيه الأم بسحب قدمها، وهي تقول في سعادة وتحدي:

((لن تتمكن من قدمي، لن تتمكن منها...))

((سأفعل، سأفعل...)) قال الولد.

وقف الأب إلى جوارهما ممسكاً بالبرتقالة، وأخذ يحدق فيهما وهما يستمتعان باللعبة، حتى تمكن الابن أخيرًا من النزول بقدمه على قدم أمه، فصاح فرحًا:

((فعلتها!))

((هيا لتأكل البرتقالة.)) قال الأب.

استطاع لين ده شون رؤية وجه الطفل، فما أن رفع الطفل وجهه ومد يده يأخذ البرتقالة من يده أبيه، حتى رأى العم لين ده شون عينان سوداوان تلمعان، ووجه شاحب ومخيف، وشفتان شاحبتان.

فجأة سادهم صمت كالصمت الذي كانوا عليه في الجهة المقابلة لمحل لين ده شون، بينما هَمَّ الطفل بتقشير البرتقالة، ثم بدأ في تناولها وهو يسير بين والديه.

وعرف لين ده شون أنهما جاءا إلى هنا بغرض إدخال ابنهما للإقامة بالمستشفى، ولما علما بأنه لا تتوفر أسرة فارغة اليوم، عادا به إلى البيت.

وفي صباح اليوم التالي، رآهم لين ده شون يجلسون عند بوابة المستشفى، في نفس المكان الذين كانوا يجلسون فيه بالأمس، إلا أنه لاحظ أن الأب كان يقف وحده وعيناه لا تنزلان من على بوابة المستشفى، في حين كانت الأم تمسك بيد ابنها ويستمتعان بلعبة النط في سعادة كبيرة. واستطاع لين ده شون أن يسمع من موضعه صوت هذا الحوار بين الأم وابنها:

((لن تتمكن من قدمي، لن تتمكن منها...))

((سأفعل، سأفعل...))

كانت الأم وابنها يتحدثان بسعادة ورضا، وكأنهما لا ينتظران الآن أمام بوابة مستشفى، وإنما يتنزهان على المروج وسط حديقة كبيرة. وقد بدا صوت الطفل ضعيفًا، وهو يحاول أن يرفع صوته وسط أصوات المترددين على المستشفى، وأبواق السيارات التي تملأ الشارع:

((سأفعل، سأفعل...))

لحظات وخرجت إليهم نفس الممرضة التي رآها لين ده شون بالأمس، فتوقف اللعب، قبل أن يصحبها الثلاثة إلى داخل المستشفى.

بعد مرور حوالي أسبوع، وفي صباح أحد الأيام، رأى العم لين ده شون الزوجان الشابان يخرجان من المستشفى التي تقع في الجهة المقابلة لمحله، كانا يسيران ببطء وفي هدوء ملحوظ، بينما كان الزوج يضم زوجته، وهي تسند رأسها على كتفه، واصلا السير ببطء حتى عبرا الشارع إلى الجهة المقابلة، ثم توقفا أمام محل العم لين ده شون، سحب الزوج يده التي كانت تطوق زوجته، وتقدم إلى نافذة المحل، ثم أطل بوجهه إلى الداخل، فسأله لين ده شون:

((أتريد برتقالة؟))

((أريد رغيفاً.)) قال الزوج.

فأعطاه لين ده شون الرغيف، ثم أخذ منه الثمن وسأله:

((كيف حال ابنكما؟))

وبينما كان الزوج يستدير مستعداً للانصراف، سمع لين ده شون يسأله عن ابنه، فالتفت إليه قائلاً:

((ابني؟))

ثم نظر إلى لين ده شون نظرة سريعة وقال بصوت خفيض:

((لقد مات.))

ثم دنا الشاب من زوجته، وقدم لها الرغيف قائلاً:

((لتأكلي لقمة.))

كانت الزوجة جالسة منكسة الرأس، وقد أخذت تزيح خصلات الشعر التي كانت تنزل على عينيها، فهزت رأسها بالنفي:

((ليست لي رغبة في الأكل؟))

((لتأكلي لقمة صغيرة.)) قال الزوج يلح عليها.

((ليست لي رغبة.)) قالت وهي تهز رأسها، قبل أن تقول ((لتأكل أنت.))

تردد بعض الوقت، قضم قضمة صغيرة في غير شهية، ثم مد يده لزوجته، أسندت رأسها على كتفه، فضمها إليه وسارا في اتجاه الغرب ببطء وهدوء.

منعت علب الأطعمة المرصوصة على الأرفف الشيخ لين ده شون من رؤيتهما وهما يبتعدان عنه، أخذ ينظر إلى بوابة المستشفى في الجهة المقابلة، شعر بأن السماء بدأت تظلم شيئاً فشيئا، رفع رأسه يتأمل صفحة السماء المليئة بالغيوم، فعرف بحاسته أنها ستمطر. ولم يكن يحب المطر، فقد جرت له تلك الحادثة وفقد ساقيه في يوم ماطر. ففي مساء أحد الأيام قبل سنوات كثيرة خلت، كان قد سمع صوت تساقط المطر، فألقى عليه معطفه، وصعد إلى الطابق العلوي ليغلق نوافذ البيت، وما أن وصل إلى منتصف الدرج، حتى خذلته قدماه، فسقط مصاباً بالشلل. وها هو يجلس على كرسيه المتحرك يراقب حركة الطريق.

كتبت في 1995/12/17

8- الماو: يعادل عشرون (فين) أي عشرون قرش من العملة الصينية اليوان. المترجم.

انفجار جوي

في مساء أحد أيام شهر أغسطس، جلست أنا وزوجتي داخل شقتنا شديدة الحرارة، جلسنا على حصيرة أمام المروحة الكهربائية ذات الصوت المزعج. كنت ممسكًا بريموت التلفاز، وجعلت أقلب بين محطاته الكثيرة. كان جسدي يتصبب عرقًا، بينما أشعر بضجر شديد. في المقابل كانت زوجتي تجلس إلى جواري مرتاحة البال، دون أن تجد على جبهتها نقطة عرق واحدة، فلقد كانت حقًّا هادئة مطمئنة. بينما أنا أجد نفسي ساخطًا على الواقع، وقد بدأ هذا السخط منذ أن تزوجنا، كنت أجلس إلى جوارها ولساني لا يتوقف عن السب واللعن، وأصابعي تعبث بالريموت، حتى بدت الصورة على شاشة التلفاز كلحظات البرق الخاطفة، التي لم تتحملها عينا شاب مثلي، وجهت سبابي لحر الصيف الشديد، وبرامج التلفاز، والمروحة القديمة ذات الصوت المزعج، ووجبة العشاء التي تناولتها قبل قليل، والشورت المعلق في الشرفة... هذا كله وزوجتي تجلس إلى جواري في سكينة، وكان هذا هو حالها دائمًا طالما تجدني أجلس إليها في هذه الشقة، بغض النظر عن الكلام القبيح والتصرفات الطائشة التي تصدر مني وأنا معها. في حين كنت أجدها امرأة أخرى بمجرد أن تطأ قدماي باب الشقة وأتركها بمفردها، كانت تبدو حينها ساخطة وحزينة، ثم تبدأ في الصراخ وتوجيه اللوم لي، قبل أن تغلبها مشاعر الحزن وتغرق في دموعها. وهذا هو الزواج، الذي كان عليّ بموجبه ألا أغيب عن عينيها، وأن أشاركها أفراحها وأتراحها حتى آخر لحظة في حياتنا، وهذا هو واجبها عليّ كزوج.

وفي تلك الأثناء، دق صديقي تانغ تزاو تشن باب الشقة، دق بأصابعه، بقبضته، ركله بقدمه، وقد يكون دفع الباب بركبته أيضًا، المهم أن صوت الطرق كان شديدًا. فانتفضت كمن سمع صوت آلة عسكرية وصياح الديكة، فتحت باب الغرفة لأجد أمامي صديقي تانغ تزاو تشن، الذي لم أكن رأيته منذ أكثر من عام. فصحت:

((اللعنة، إنه أنت يا تانغ تزاو تشن)).

وكان تانغ حينها يرتدي بنطالًا واسعًا وسترة حمراء داكنة، وقد بدا في صورة مبتذلة، بينما تعلو وجهه ابتسامة غريبة، وقد رفع قدمه قليلًا دون أن يخطو داخل الشقة. فقلت:

((تفضل بالدخول)).

دخل صديقي تانغ بحذر شديد، وجعل ينظر يمينًا ويسارًا خلال الطرقة الضيقة، كان يخطو كمن يسير وسط عتمة شديدة، كالذي إذا أخرج يده لم يكد يراها. كنت أعرف أن عينيه تبحثان هنا وهناك عن زوجتي، فلم يزرني في بيتي منذ أكثر من عام بسببها. فهو كما قالت زوجتي ذات مرة: صديقك تانغ تزاوتشن مجرد صعلوك.

وإن لم يكن تانغ في الحقيقة كما وصفته زوجتي، فهو على كل حال إنسان معروف بحسن معاملته للآخرين، قريب جدًّا من أصدقائه، فقط معروف بعلاقاته النسائية المتعددة؛ ولهذا فهو من وجهة نظر زوجتي صعلوك. ففيما مضى كان كثيرًا ما يزورني برفقة إحداهن، ولم تكن المشكلة في ذلك على الإطلاق، وإنما في أنه كان يأتي إلينا في كل مرة بصديقة جديدة، الأمر الذي أشعل غضب زوجتي من تصرفاته.

فقد كانت زوجتي تؤمن بأن المرء على دين خليله، وأن صحبة الأخيار تجلب الخير وصحبة الأشرار تجلب الندامة، بل وكانت ترى أن هناك خطرًا كبيرًا ينتظرني جراء علاقتي به، أو بالأحرى كانت تشعر

بخطر كبير ينتظرها بسبب علاقتي بصديقي تانغ. وقد نسيتُ تمامًا أنني رجل طيب وعلى سجيتي، وعندئذ بدأت تحذيراتها لي، والتي لم تكن تخلو من التهديد والوعيد، فكان أن قالت لي ذات يوم: إنني إذا سلكت طريق صديقي تانغ تزاو تشن، فإنه ينتظرني مستقبل كارثي. بل وبدأت تصف لي ملامح ذلك المستقبل الكارثي بالتفصيل، فجاءت بكل ما يمكن أن يخطر على بالها في هذا المنحى، حتى بدأت أخشى على نفسي من هول ما سمعته منها.

وكان صديقي تانغ شخصًا مستهترًا، فلم يدرك خطورة تحذيرات زوجتي، وبالرغم من أنني ألمحت له أكثر من مرة، إلا أنه كان يصر على تجاهل نصيحتي له. حتى جاء اليوم الذي كان يجلس فيه على الكنبة في شقتي، وقال بصوت مرتفع:

((ما لي أرى أصدقائي يخطفهم مني الزواج الواحد تلو الآخر، بدأ بك أنت، ثم تشن لي دا، وفانغ خونغ، وأخيرًا لي شوخاي. بعد أن استسلمتم جميعًا أمام أول امرأة في حياة كل منكم. فأنا لا أعرف السبب في تهافُتكم على الزواج بهذه السرعة، وما الذي يمنعكم من الاستمتاع بأكثر من صداقة مع أكثر من امرأة؟ ولماذا لم تتركوا لأنفسكم الفرصة في الاستمتاع بالحياة بحرية مثلي؟ لماذا سلَّم كل منكم نفسه لامرأة تتحكم في حياته بل وفي أنفاسه؟! فما إن أتذكركم، حتى لا أتمالك نفسي من الضحك، لقد أصبح الواحد منكم يفكر في الكلمة مائة مرة قبل أن يتفوه بها، وأنت على وجه الخصوص، بمجرد أن تتحدث معي جملة أو اثنتين، تسارع لتتأكد مما إذا كانت زوجتك سمعتك أم لا، ألم يزعجك كل هذا التهديد والوعيد؟ ولكن على أية حال، لا تزال الفرصة سانحة أمامك، فأنت لا تزال شابًّا، وبإمكانك التعرف على امرأة أخرى، فمتى تريد أن أعرفك على إحداهن؟

هذا هو صديقي تانغ تزاو تشن، الذي ينسيه غروره حدود الكلام وما يمكن أن يحل به جراء كلامه غير المسئول. لقد نسي أن زوجتي تقف بالقرب منه تعد الطعام في المطبخ، فقد كان صوته عاليًا، حتى إن زوجتي سمعت كل حرف تفوه به. حتى خرجت إلينا بوجه متجهم، وتقدمت نحو تانغ تزاو تشن وهي تمسك بمقلاة الزيت، وقالت له:

((انصرف، اخرج من هنا!)).

فارتعد تانغ من تقدمها نحوه وأشاح بوجهه بعيدًا عنها، وحاول قدر الإمكان التراجع إلى الخلف، وهو يجتهد في الابتعاد عن الكنبة، حتى تمكن من الفرار دون أن يودعني بنظرة واحدة. لم أره خائفًا مثل ذلك اليوم، وقد كنت أعلم أنه لم يكن خائفًا من زوجتي، وإنما من مقلاة الزيت التي كانت تمسك بها، فقد أرعبه صوت الزيت بالمقلاة، حتى إنه لم يزرني منذ أكثر من عام بسبب تلك الحادثة.

وبعد مضي أكثر من عام، جاء لزيارتي فجأة في هذه الليلة شديدة الحرارة من ليالي أغسطس، وما أن وطأت قدمه باب الشقة، حتى وجد زوجتي أمامه. وما كان من زوجتي إلا أن نهضت واقفة، واستقبلته بابتسامة ودودة، قائلة:

((إنه أنت يا تانغ، لم تزرنا منذ زمن طويل!)).

فارتسمت على وجه تانغ تزاو تشن ابتسامة مصطنعة، فيبدو أنه تذكر حادثة مقلاة الزيت، فبقي واقفًا في مكانه، بينما أشارت إليه زوجتي بأن يجلس على الحصيرة:

((تفضل بالجلوس)).

فألقى نظرة على الحصيرة التي كنا نفترشها، وهو لا يزال في وضعية الوقوف. فوجهت المروحة ذات الصوت المزعج ناحيته، بينما جاءت له زوجتي بمشروب من الثلاجة. فجعل يمسح عرقه ويشرب

المشروب الذي قدمته له زوجتي، فلما رأيته لا يزال واقفًا قلت:

((لماذا لا تجلس؟)).

ارتسمت على وجهه ابتسامة من يطلب ودنا، ثم قال:

((أنا في ورطة كبيرة، لا أجرؤ على العودة إلى منزلي)).

((أي ورطة؟)). سألته مندهشًا.

راح ينظر إلى زوجتي، قبل أن يوجه كلامه إليّ قائلًا:

((جمعتني مؤخرًا علاقة بامرأة.. متزوجة، والآن زوجها يتربص بي أسفل المنزل)).

وهنا عرفنا ورطته، وأدركنا الخطر الذي ينتظر صديقنا تانغ تزاو تشن على يد ذلك الزوج الغيور الغاضب. فأخذت زوجتي الريموت، وقلبت محطتين، ثم بدأت تشاهد المحطة الثانية بتركيز. وكان بمقدورها عدم الاهتمام بهذه المشكلة، ولكنها لا يمكن أن تفعل ذلك، فتانغ تزاو تشن على أية حال صديقي، فسألته:

((وما العمل إذن؟)).

((هل بإمكانك مرافقتي إلى منزلي؟)). قال تانغ تزاو تشن بطريقة مثيرة للشفقة.

فنظرت إلى زوجتي التي كانت تجلس على الحصير وتشاهد التلفاز، وكم تمنيت أن تلتفت إليّ، ولكنها لم تفعل، فسألتها:

((هل بإمكاني مرافقته إلى منزله؟)).

((لا أعرف)). قالت بينما هي تشاهد التلفاز.

((إنها تقول لا تعرف)). هكذا أجبت تانغ تزاو تشن، ((ومن ثم فإنني لا أعرف إذا ما كان بإمكاني مرافقتك يا صديقي)).

وما إن سمع تانغ هذا الرد، حتى هز رأسه متأسفًا وقال:

((لقد مررت في طريقي إليكم ببيت تشن لي دا، وفانغ خونغ، ولكني فضلت بيتكما على أن أقصد بيت صديقنا لي شوخاي، فما الذي حملني على ذلك؟ فكما تعلمون أننا لم نتقابل منذ أكثر من عام، إلا أننا أصدقاء حميمون، وهذا الذي حملني على طلب المساعدة منكم ولم أكن أنتظر منك أن تقول إنك لا تعرف، فالأفضل أن تصارحني وتقول إنك لا ترغب في مساعدتي..)).

((أنا لم أقل إنني لا أرغب، فقط قلت لا أعرف..)).

((وماذا تعني بقولك لا أعرف؟)). سأل تانغ تزاو تشن.

((أقصد أنني...))، نظرت إلى زوجتي قبل أن أتابع: ((لست أنا الذي لا يرغب في مرافقتك، ولكن زوجتي هي التي لا ترغب أن أفعل. وطالما أنها لا ترغب، إذن فليس بمقدوري أن أفعل شيئًا على غير رغبتها. فمثلًا بإمكاني أن أخرج معك الآن، ولكن إذا فعلت فلن أستطع العودة إلى هنا ثانية، أعلم أنها سوف تمنعني من الدخول. فقد أقيم معك حينذاك يومًا أو اثنين أو حتى شهرًا كاملًا، لكنني يجب أن أعود إلى منزلي في يوم من الأيام، وعندها لن أهنأ بيوم في هذا البيت بسبب فعلتي هذه، هل فهمت قصدي؟ لست أنا الذي لا يرغب في مرافقتك، ولكنها هي..)).

((أنا لم أقل إنني لا أرغب في ذلك)). قالت زوجتي، قبل أن تستدير ناحية تانغ تزاو تشن وتقوله له: ((لا

تصدقه، فقد أصبح مؤخرًا يتظاهر أمام الناس بأنه مسكين بسبب وبدون سبب، ولكنه في واقع الأمر سيد هذا البيت، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيه، بل إنه يغضب لأبسط الأمور، ولقد دفعه الغضب لتكسير ثلاثة أكواب خلال هذا الشهر..)).

قاطعتها: ((ولكن أنا فعلًا أخاف منكِ، وتانغ تزاو تشن يشهد على ذلك)).

((نعم، إنه حقًا يخاف منكِ، ونحن جميعًا نعلم ذلك)). هز تانغ تزاو تشن رأسه بالإيجاب.

فنظرت إلينا زوجتي ولم تتمالك نفسها من الضحك، بينما وقفت أنا وتانغ في مكاننا ننتظر ردة فعلها، فسألت هي تانغ والابتسامة تعلو وجهها:

((كم عدد الأشخاص الذين ينتظرونك عند المنزل؟)).

((شخص واحد فقط)). أجابها تانغ تزاو تشن.

((وهل يحمل سكينًا؟))، تابعت تسأله.

((لا)). أجاب تانغ.

((وكيف عرفت ذلك؟ فقد يخفيها في طيات ملابسه؟)).

((مستحيل)). قال تانغ، وأضاف: ((فقد رأيته يرتدي تي شيرت وشورت، فلا مكان في ملابسه لإخفاء السكين)).

هنا أطمأنت زوجتي وقالت لي: ((لتعد مبكرًا)).

((سأذهب وأعود بسرعة)). قلت وأنا أهز رأسي بالإيجاب.

ويبدو أن تانغ تزاو تشن لم يتمالك نفسه من السعادة، حتى إنه لم يفر مسرعًا، بل تسمر في مكانه يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم قال لزوجتي:

((هذا ما كنت أنتظره منكِ، وهو ما حملني أن أقصدكم قبل أصدقائي الآخرين. بعد أن هداني تفكيري إلى أنكِ أفضل زوجات أصدقائي أخلاقًا وأكثرهن تقديرًا لمشاعر الصداقة. فزوجة صديقنا فانغ خونغ مثلًا امرأة غريبة الأطوار، وزوجة تشن لي دا امرأة سليطة اللسان، أما زوجة لي شوخاي فهي مريضة بتوجيه اللوم والوعظ للغير، أما أنتِ فأفضلهن أخلاقًا، وأفضلهن..)).

ثم استدار تانغ وقال: ((كم أنت محظوظ يا صديق!)).

فمضيت أفكر في أنه إذا لم يتوقف تانغ تزاو تشن عن هذا الكلام الفارغ، فإن زوجتي قد تغير رأيها في الموافقة على خروجي معه، فركلته ركلة تألم منها، حتى تأوه قليلًا قبل أن يدرك قصدي، فقال لزوجتي:

((لنخرج الآن)).

وما إن خطت أقدامنا خارج عتبة الشقة، حتى استوقفتني زوجتي، فظننت أنها غيرت رأيها، إلا أنني وجدتها تهمس إليّ قائلة:

((احذر أن تسير أمامه)).

((حسن)). هززت رأسي بالموافقة.

وما إن غادرنا المنزل، حتى قصدت أنا وتانغ تزاو تشن بيت صديقنا لي شوخاي، وكانت النتيجة كما ذكر تانغ بالضبط، حيث استقبلته زوجة صديقنا لي بالوعظ والتوبيخ. وكانت قد خرجت للتو من الحمام، وجلست أمام المروحة الكهربائية تمشط شعرها، حتى كانت قطرات الماء تتساقط من شعرها وتتطاير

بفعل المروحة إلى وجه تانغ، الذي كان لا يتوقف عن مسحها بيده. وقالت زوجة لي شوخاي:

((ألم أقل لك إنك إذا استمريت على هذه الحالة، فإنه عاجلًا أم آجلًا سيكسر لك أحدهم قدمك. ألم أقل له ذلك يا لي شوخاي؟)).

فرأينا لي شوخاي جالسًا في مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة، إلا أن سماعه لزوجته توبخ صديقه أمامه، جعله في موقف لا يحسد عليه، ولكنه اكتفى بهز رأسه بالموافقة على كلامها. قبل أن تتابع زوجته توبيخها لتانغ:

((أرى أنك يا تانغ تزاو تشن لست سيئًا بكل ما تحمل معنى الكلمة، ولكنك زير نساء، فقد نتقبل علاقاتك مع تلك الفتيات اللاتي لم يتزوجن بعد، أما سعيك إلى إغواء زوجات الآخرين، فهذا دليل على سوء أخلاقك، فأنت بفعلتك هذه تكون سببًا في هدم سعادة تلك الأسر وتحويل حياتهم إلى جحيم، والمصيبة الأكبر إذا كان لدى بعضهم أطفال. فإذا أغويتني أنا على سبيل المثال، فكم من المعاناة التي ستسببها لصديقك لي شوخاي، أليس كذلك يا لي شوخاي؟)).

فغضب لي شوخاي كثيرًا من كلامها، لكنه لم يُظهر شيئًا من ذلك، بينما تابعت زوجته:

((أنت دائمًا هكذا يا تانغ، تبني سعادتك على آلام الآخرين، ولكنك ستنال جزاءك عاجلًا أم آجلًا، بل وقد يقتلك أحدهم، وعندها لن تجد من يتعاطف معك. تذكَّر هذا الكلام جيدًا، واعلم أنك إذا لم تقلع عن هذا العيب الخطير، فإنك ستهلك لا محالة. وها هو أحدهم يحاصرك الآن أسفل بيتك، أليس كذلك؟)).

هز تانغ رأسه بالإيجاب وقال: ((نعم، نعم، لديكِ كل الحق، فقد أقمت مؤخرًا علاقات مع أكثر من سيدة جميعهن متزوجات، ولم أسلم من ملاحقة أزواجهن)).

ثم خرجنا بعدها أنا وتانغ تزاو تشن ولي شوخاي قاصدين صديقنا فانغ خونغ، جلس ثلاثتنا في حجرة الاستقبال ببيت فانغ خونغ، نتناول أصابع الآيس كريم التي قدمها لنا فانغ خونغ من الثلاجة، وعيوننا على فانغ خونغ الذي تسلل فجأة إلى غرفة النوم ونصفه الأعلى عارٍ تمامًا، ثم سمعنا بعد ذلك همسًا بين رجل امرأة داخل الغرفة. فعرفنا أن صديقنا فانغ يتحدث إلى زوجته في مشكلة تانغ، وأنه الآن يحاول إقناعها بالموافقة على خروجه معنا في هذا اليوم شديد الحرارة من أيام أغسطس، لمؤازرة صديقنا تانغ تزاو تشن.

وكان باب الغرفة مواربًا، حتى استطعنا أن نرى من خلال فتحة صغيرة أسمك بقليل من حجم الإصبع، أن ضوء الغرفة بدا مظلمًا مقارنة بحجرة الاستقبال، كما سمعنا صوتهما الذي كان يعلو وينخفض، بينما كان كل منهما يجتهد في خفض صوته، حتى جاءنا الصوت أقرب ما يكون لصوت تنهيد.

انتهينا من أصابع الآيس كريم، ورحنا نتأمل حركة المروحة، ونحن نستمتع بهوائها الجميل يخفف عنا شدة الحر، تبادلنا النظرات ثم الابتسامات، ثم وقفنا وسرنا مسافة خطوتين في حجرة الاستقبال، ثم جلسنا. انتظرنا وقتًا طويلًا حتى خرج إلينا فانغ خونغ، وقد رأيناه يغلق الباب ورائه في حذر، قبل أن يقف هنالك وقد ظهرت على وجهه أمارات الجدية والصرامة، ثم رأيناه يحشر رقبته في فتحة تي شيرت أبيض اللون، ثم قال:

((هيا بنا)).

سرنا نحن الأربعة والعرق يتصبب من أجسادنا، حتى وصلنا أسفل المنزل الذي يقيم فيه صديقنا تشن لي دا، وكان تشن يقيم في الطابق السادس والأخير من المبنى. وقفنا أسفل المبنى على ناصية الشارع الذي يعج بالضوضاء، ومن حولنا عدد من الأشخاص الذين خرجوا من بيوتهم بحثًا عن الهواء البارد،

ورأينا الضوء المنبعث من شقة صديقنا تشن، قبل أن نصيح بأعلى صوتنا:

((تشن لي دا، تشن لي دا، تشن لي دا)).

فخرج تشن لي دا إلى الشرفة، وأطل علينا برأسه قائلًا:

((مَن المنادي؟)).

((نحن)). أجبناه في صوت واحد.

((من؟)).

فقلت: ((نحن لي شو خاي، فانغ خونغ، تانغ تزاو تشن وأنا)).

((اللعنة عليكم جميعًا)). هكذا صاح تشن لي دا من الطابق السادس من فرط سعادته، قبل أن يضيف ((اصعدوا بسرعة)).

((لن نصعد إليك، فأنت تسكن في أعلى طابق، لتنزل لنا أنت)).

وهنا سمعنا صوتًا أنثويًّا قادمًا من أعلى:

((وماذا تريدون منه؟)).

دققنا في الصوت، حتى تأكدنا من أن صاحبته هي زوجة تشن، التي ما لبثت أن راحت تشير إلينا وتصيح بأعلى صوتها: ((وما الذي جاء بكم إلينا؟)).

فأجبتها: ((صديقنا تانغ تزاو تشن واجهته مشكلة، ونحن كأصدقاء نسعى لمساعدته، فلتسمحي لتشن لي دا بالنزول)).

فقالت: ((وما هي المشكلة التي واجهت تانغ؟)).

((أحدهم ينتظره أسفل بيته، يهدده بالقتل)). رد لي شوخاي.

فقالت زوجة تشن: ((ولماذا يهدده ذلك الرجل بالقتل؟)).

((لأن تانغ تزاو تشن أخطأ مع زوجته..)). قال فانغ خونغ.

((الأمر هكذا!!)). قالت زوجة تشن، قبل أن تتابع: ((عاد تانغ تزاو تشن لحماقاته القديمة؛ لذا فإن ذلك الرجل جاء ليقضي عليه)).

((نعم الأمر هكذا)). قلنا في صوت واحد.

((ولكن الأمر ليس بهذه الخطورة)). قال تانغ تزاو تشن.

((وما اسم تلك المرأة التي أخطأ معها تانغ تزاو تشن هذه المرة؟)). سألت زوجة تشن وهي تقف في الشرفة.

((ما اسمها؟)). سألنا صديقنا تانغ.

((كفاكم من هذا الصياح، الذي سمعه الكثير من المارة، ألم تنتبهوا إلى ضحكاتهم؟ لقد فضحتم أمري بين الناس)). قال تانغ لأصدقائه.

((ماذا يقول تانغ تزاو تشن؟)). سألت زوجة تشن لي دا.

أجبتها: ((يطلب منَّا أن نكف عن الصياح والحديث في هذا الموضوع، حتى لا يفتضح أمره)).

((لقد افتضح أمره منذ زمن!)). أجابت زوجة تشن وهي لا تزال في الشرفة بالطابق السادس.

((اللعنة عليكِ)). سبها تانغ تزاو تشن.

((وماذا يقول الآن؟)). سألت زوجة تشن لي دا.

((يقول إنك محقة فيما قلتِ)). أجبناها في صوت واحد.

وهكذا تجمع أخيرًا أصدقاء تانغ تزاو تشن، وسرنا معًا في تلك الليلة من ليالي شهر أغسطس، والتي بلغت فيها درجة الحرارة 34 درجة مئوية، في طريقنا إلى البيت الذي تقع به شقة تانغ تزاو تشن. وفي الطريق سألناه عن هوية ذلك الرجل الذي ينتظره هناك ويهدد حياته، فقال إنه لا يعرفه. فسألناه عن زوجة ذلك الرجل، فأجاب بأننا لا نعرفها.

وأخيرًا سألناه: ((وما الذي أوقعك في هذه المرأة المتزوجة؟))، فأجابنا:

((وهل هذا بحاجة لسؤال، تعارفنا ثم حدث ما حدث)).

((بهذه البساطة؟))، سألناه في صوت واحد.

فبدا أنه يستخف بسؤالنا، قبل أن يقول:

((بل أنتم الذين عقَّدتم الأمور، وبالتالي ستقضون حياتكم إلى جوار امرأة واحدة)).

ثم جلسنا أمام أحد المتاجر لتناول مشروب بينغ جين البارد. وجعلنا نتناقش في خطتنا لمواجهة ذلك الزوج الغاضب، فقال لي شوخاي:

((يجب ألَّا نعيره أدنى اهتمام، وأن نرافق تانغ تزاو تشن حتى باب شقته، ليعلم ذلك الرجل أن تانغ جاء برفقتنا نحن الأربعة، وعندها لن يجرؤ على مضايقته ثانية)).

أما فانغ خونغ، فقد رأى أنه يجب أن نتحدث مع الزوج الغاضب، ليعلم أنه لا لوم على صديقنا تانغ، وأنه يجب أن يعود لمحاسبة زوجته التي أخطأت في حقه. أما أنا فقد قلت: ((وما العمل إذا تقاتلتا؟)). فأجاب تش لي دا قائلًا إنه إذا تقاتلنا، فإننا سنقف في صف صديقنا تانغ. وإنه بالتأكيد سيتغلب على الزوج الغاضب.

وبينما كنا نتناقش في أمر الزوج الغاضب ومشكلته مع تانغ تزاو تشن، كان تانغ يجلس معنا دون أن ينطق بكلمة واحدة، وما إن سألناه عن رأيه، حتى اكتشفنا أنه كان يغازل فتاة جميلة على مقربة منه، وأنه لم يكن ينصت إلينا من قريب أو بعيد. ثم رأينا عيناه تلمعان، والفتاة التي كانت تجلس على مسافة مترين إلى يمينه تستمتع بتناول مشروب ما، وكانت الفتاة ترتدي تي شيرت حمالة وتنورة مزركشة. وما إن نظرنا إليها حتى التفتت إلينا، وبالطبع إلى تانغ تزاو تشن، نظرت إلينا بشيء من عدم الاهتمام. انتهت من تناول مشروبها ثم وضعت زجاجة الكوكاكولا على الكاونتر، ثم استدارت وغادرت المكان. ولقد كانت استدارتها حقًّا جميلة ومثيرة. وشيعناها بنظراتنا حتى خرجت إلى الشارع الرئيسي، قبل أن نتابع باندهاش تانغ تزاو تشن وهو يلحق بها. فلم نتمالك أنفسنا وصحنا به:

((تانغ تزاو تشن!!)).

التفت إلينا تانغ وهو يضحك بصوت مسموع، دون أن يثنيه ذلك عن ملاحقة الفتاة الجميلة.

شيعناه بنظراتنا وقد انعقدت ألسنتنا من تصرفاته الطائشة، وقد علمنا أنه على موعد قريب مع لحظات سعادة جديدة. ولكن هذا ليس وقتها على الإطلاق! هل نسي ذلك الزوج الغاضب الذي يتربص به عند بيته ويهدده بالقتل، وأنه استدعانا من بيوتنا الواحد تلو الآخر، وجعلنا نخرج في هذا الجو شديد الحرارة ونحن نتصبب عرقًا، لنحميه ونساعده في العودة إلى منزله؟ هل نسي هذا كله، وتركنا نجلس أمام باب المتجر،

ثم ينصرف هكذا دون استئذان؟!

فأطلقنا العنان لألسنتنا بالشتم والسب، سببناه بأنه إنسان فاسد لدرجة لا ينفع معها النصح، وأنه صعلوك، وأنه لن يفلت من العقاب، وأنه لن ينجو من الإصابة بمرض الزهري، الذي قد تكون نهايته بسببه. كما أقسمنا بأننا لن نهتم بأمره ثانية، حتى ولو كسر له أحدهم قدميه، أو فقأ له عينيه، أو حتى خصاه!!

جعلنا نسبه ونلعنه حتى تصببت أجسادنا بالعرق، ولم يعد لدينا القدرة على مواصلة السباب، حتى هدأنا شيئًا فشيئًا. ثم وقفنا هنالك ونحن نتبادل النظرات فيما بيننا، وبدأنا نفكر في الخطوة القادمة، فما كان إلا أن بادرتهم بالسؤال:

((ما رأيكم أن يعود كلٌّ منا إلى بيته؟)).

فلم يرد أحد، وفجأة اكتشفت حماقة هذا الرأي الذي اقترحته عليهم، فقلت على الفور:

((كلا، لن نرجع إلى بيوتنا الآن)).

ففهم أصدقائي الثلاثة في الحال ما أقصده، فقالوا:

((صحيح، لا داعي للاستعجال)).

ثم تذكرنا أننا لم نجتمع منذ عدة سنوات، وأنه لولا مشكلة تانغ تزاو تشن، فإن زوجاتنا لم يكنَّ ليسمحن لنا بالخروج معًا، وهكذا اكتشفنا فجأة أنه يجب علينا ألا نضيع هذه الفرصة النادرة، هذا قبل أن ننتبه إلى أحد الفنادق الصغيرة على الجانب المقابل من الشارع، فتوجهنا نحوه على الفور.

وفي مساء ذلك اليوم، شربنا وتحدثنا كثيرًا، وقد وقفت آلة الزمن أمام فرحتنا بتجمعنا معًا، ولم يكن أيٌّ منا يرغب في العودة إلى بيته. جعلنا نستدعي ذكرياتنا مع بعضنا البعض، تلك الأيام التي قضيناها معًا قبل الزواج. تحسرنا على تلك الأيام الجميلة، التي كنا نسير فيها وسط الشارع ونحن نغني بأعلى صوت، تلك الألفاظ الخارجة التي كنا نُسمعها للفتيات الجميلات في الطرقات، قيامنا بإطفاء لمبات أعمدة الإنارة في الشوارع، طرقنا على الأبواب في منتصف الليل، حتى إذا استيقظ أهل البيت وهمُّوا أن يفتحوا الباب، نكون قد فررنا بعيدًا، وحينما كنا نحبس أنفسنا في الغرفة وندخن بشراهة، ليملأ الدخان سماء الغرفة، حتى لا نكاد نرى وجوه بعضنا البعض. لم نعد نتذكر كل تلك الحماقات التي كنا نرتكبها معًا، وكم كنا نرهق أنفسنا. وهنا جمعنا النقود التي كان يحملها كلٌّ منا، وأنفقنا المبلغ كله في شراء الخمر، حتى كنا نلقي بإحدى الزجاجات الفارغة عالية، ثم نتبعها بزجاجة أخرى، لتتحطم الزجاجتان قبل سقوطهما على الأرض، وتتناثر قطع الزجاج على الأرض كحبات الثلج الصغيرة. وقد أطلقنا على هذه اللعبة اسم الانفجار الجوي.

كتبت في 17–12–1995

الصبي وحادث عند الغسق

في ظهيرة أحد أيام فصل الخريف، جلس رجل خمسيني يُدعى سونفو أمام ((عربة)) لبيع الفاكهة، وقد انعكس على وجهه ضوء شمس ذلك النهار الخريفي. جلس واضعًا يديه على ركبتيه، وقد بدا شعر رأسه الأبيض رماديًّا بلون الطريق الممتد أمامه إلى بعيد. يجلس هنا منذ ثلاثة أعوام لبيع الفاكهة، حيث محطة الحافلات السريعة. مرت أمامه حافلة، فتطايرت إليه كمية من الغبار حجبت عنه الرؤية تمامًا، وما هي إلا لحظات حتى سكن الغبار ليظهر من جديد جالسًا أمام عربته.

كان قد رأى منذ لحظات صبيًّا يقف على مقربة منه، وما إن انزاح الغبار، حتى رأى الصبي يحدق فيه بعينين جاحظتين. انتبه إلى الصبي بملابسه المتسخة البالية يضع إحدى يديه على ثمرات الفاكهة. اقترب من الصبي يتفحص يده، فوقعت عيناه على أظافره الطويلة والمتسخة، وقد عبثت بثمرة تفاح، فلوَّح له سونفو بيديه كمن يهشُّ ذبابة:

((انصرف من هنا!)).

سحب الصبي يده السوداء، وارتجف قبل أن ينصرف. سار بخطوات متثاقلة، ويدين فارغتين، وقد بدا رأسه كبيرًا مقارنة بجسده.

اقترب بعضهم من عربة الفاكهة، فصرف سونفو نظره عن الصبي وانتبه للزبائن، تقدم هؤلاء إلى أمامه يتساءلون:

((كم سعر التفاح؟ وبكم الموز؟...)).

نهض سونفو ممسكًا بالميزان، وزن لهم بعض التفاح والموز وقبض منهم الثمن، هذا قبل أن يعود للجلوس على كرسيه واضعًا يديه فوق ركبتيه. وما إن وقعت عيناه على الصبي من جديد، حتى عاود النظر إليه ثانية. ولكن الصبي لم يكن هذه المرة يقف أمامه، وإنما كان يقف إلى جواره، يحدق في التفاح والموز فوق عربة الفاكهة. فيما راح سونفو يدقق النظر في الصبي الذي لم تنزل عيناه من على الفاكهة، قبل أن يديرهما قليلًا إلى سونفو قائلًا:

((إني جائع)).

نظر إليه سونفو دون أن يرد بكلمة واحدة، فكرر الصبي:

((إني جائع)).

سمع سونفو شكوى الصبي، تفحص هيئته غير النظيفة، ثم قال بوجه عابس:

((هيا انصرف من هنا)).

انتبه إلى أن الصبي يرتجف بشدة، هذا قبل أن يكرر سونفو:

((قلت هيا انصرف من هنا!)).

فُزع الصبي ولم يتمالك نفسه، فإذا بجسمه كله يرتعد ربما من شدة الخوف والجوع، في الوقت الذي صرف سونفو النظر عنه تمامًا، وانشغل بمراقبة حركة الطريق. سمع صوت حافلة تقف على الرصيف المقابل، وقد اصطف الركاب بالداخل، ثم رأى من خلال النافذة جمعًا كبيرًا من الركاب يتزاحمون داخل الحافلة في اتجاه باب النزول، وما هي إلا لحظات قليلة، حتى تجمع عدد كبير منهم حول الحافلة، ولم يكد

سونفو يرفع نظره من على الحافلة والركاب، حتى رأى الصبي يفر مسرعًا، فانشغل بالنظر إلى الصبي وسبب فراره بهذه السرعة، هذا قبل أن يرى يده تقبض على شيء ما، شيء مستدير، وما إن أمعن النظر في ذلك الشيء، حتى تفاجأ بأنه تفاحة حمراء. عندها هبَّ سونفو وجرى ليلحق بالصبي، وهو يصيح بأعلى صوته أن ((أمسكوا هذا اللص، أمسكوا هذا اللص!)).

كان الوقت بعد الظهر، وبينما كان الصبي يجري في ذلك الطريق الترابي، سمع صوت صياح من خلفه، وما إن نظر حتى رأى سونفو يحاول اللحاق به. فأخذ الصبي يجري بسرعة، وهو يلهث من التعب، حتى أحس بأنه أوشك أن يسقط من شدة التعب، فنظر خلفه ثانية، فرأى سونفو يلوح بيده ويصيح بأعلى صوته، فأدرك أنه على وشك اللحاق به. فتوقف الصبي يلتقط أنفاسه. وفي اللحظة التي تمكن فيها سونفو من اللحاق بالصبي، أخذ الصبي يقضم التفاحة في عجالة.

رفع سونفو يده عالية لتهوي على يد الصبي، فأسقط التفاحة، قبل أن ينتهي المشهد بصفعة قوية على وجه الصبي الذي سقط على الفور، وجعل يحيط رأسه بكلتا يديه، دون أن يتوقف عن مضغ ما تبقى في فمه من التفاحة، وعندما سمع سونفو صوت فمه، أمسك بياقته أنهضه من على الأرض، وأحكم قبضته حول رقبته، حتى لم يعد باستطاعة الصبي مواصلة المضغ، فأخذ ينظر إليه وقد انتفخت وجنتاه بما تبقى من التفاحة في فمه. هذا بينما كان سونفو يمسك بياقته بإحدى يديه، ويقبض بالأخرى على رقبته، ثم صرخ سونفو:

((الفظها بسرعة، قلت الفظها بسرعة!)).

تجمع حولهما حشدٌ من المارة، فقال لهم سونفو:

((انظروا، إنه يُصر على تناولها، سرق التفاحة وقضمها، بل ويُصر على التهامها أمام عينيّ)).

ثم صفعة سونفو صفعة ثانية، وهو يصرخ في وجهه:

((قلت الفظها بسرعة)).

وبينما كان الصبي يغلق فمه، أحكم سونفو قبضته حول رقبته وهو لا يزال يصرخ:

((قلت الفظها بسرعة)).

فتح الصبي فمه، فرأى سونفو ما تبقى بداخله من بقايا التفاحة، ثم أخذ يحكم من قبضته حول رقبة الصبي، قبل أن يلتفت لعينيه الجاحظتين، وهنا قال له أحدهم:

((سونفو، لقد كدت أن تخنقه)).

((حيوان))، رد سونفو وتابع ((حتى إذا حدث وخنقته، فإنه مجرد حيوان)).

ثم أرخى سونفو يده حول رقبة الصبي، وقال وهو يشير إلى السماء:

((فأنا شديد الكره للصوص، هيا الفظها بسرعة)).

بدأ الصبي يلفظ بقايا التفاحة، فخرجت من فمه بقايا مثل بقايا معجون الأسنان لطخت سترته. وما إن أغلق الصبي فمه، حتى مد سونفو يده وأجبره على فتحه ثانية وهو يقول:

((لا تزال توجد بعض الفتات بالداخل)).

استسلم الصبي لإلحاح سونفو، وأخذ يخرج من فمه فتات صغيرة، حتى أخرج جميع ما في جوفه. وهنا قال سونفو:

((حسبُك)).

نظر سونفو إلى الجمع من حوله، والذين كان من بينهم بعض معارفه، وقال:

((لم نكن فيما مضى نوصد أبوابنا بالأقفال، ولم يكن بهذه المدينة باب واحد تجده موصدًا بالأقفال، أليس كذلك؟)).

رأى بعضهم يهز رأسه بالموافقة، فتابع يقول:

((أما الآن، فتجدنا نضع القفل فوق القفل، أتدرون لماذا؟ بسبب هؤلاء اللصوص، فأنا شديد الكره للصوص)).

ثم نظر سونفو إلى الصبي، فتصادف أنه كان هو أيضًا ينظر إليه. فإذا به يرى وجهه ملطخًا بالطين، وهو يحدق فيه وكأنه تأثر بكلامه الذي سمعه منذ قليل. وأثارت تعبيرات وجه الصبي غضب سونفو، فتابع يقول:

((حسب القوانين القديمة، فإنه يجب علينا كسر يده، نعم كسر اليد التي سرقت)).

ثم خفض سونفو رأسه، وصرخ في وجه الصبي متسائلًا:

((أي منهما التي سرقت؟)).

ارتجف الصبي وأخفى يده اليمنى خلفه، فأمسك بها سونفو على الفور، ورفعها أمام الجمع المحتشدين قائلًا:

((هذه اليد، وهذا ما دفعه لأن يخفيها بسرعة)).

صاح الصبي: ((ليست هذه)).

((إذًا فهي اليسرى))، قال سونفو وهو يمسك بيد الصبي اليسرى.

((ليست هذه!)).

صرخ الصبي محاولًا سحب يده اليسرى من قبضة سونفو، فصفعه سونفو صفعة قوية، جعلته يترنح، قبل أن يعاجله بصفعة ثانية أسقطته أرضًا. ثم أمسك بشعره رافعًا وجهه لأعلى، قبل أن يصرخ بأعلى صوته:

((أجب بسرعة، أي اليدين التي سرقت التفاحة؟)).

فتح الصبي عينيه، ونظر إلى سونفو، ثم مد يده اليمنى.

أمسك سونفو يد الصبي اليمنى بإحدى يديه، وأخذ يقرص إصبع الصبي الوسطى باليد الثانية، ثم قال للجمع المحتشدين:

((حسب القوانين القديمة، فإنه يجب علينا كسر هذه اليد، أما الآن فلا يمكننا تطبيق هذا العقاب، فقط أمامنا خيار التربية، فعن أي تربية يتحدثون؟)).

ثم نظر سونفو إلى الصبي وقال: ((هكذا تكون التربية)).

بعدها رفع سونفو يديه عالية، وأنزلهما معًا على إصبع الصبي الوسطى بيده اليمنى، فصرخ الصبي صرخة مدوية، وقبل أن يرى الصبي إصبعه قد سقطت في كفه، إذا به يسقط مغشيًّا عليه.

((هكذا يكون التعامل مع اللصوص، فإذا لم تستطع أن تكسر له يده، فعلى الأقل عليك أن تكسر له

إصبعًا)). قال سونفو للجمع المحتشدين.

وأخذ سونفو يرفع الصبي من على الأرض، بينما كان الصبي يغمض عينيه من شدة الألم، فصرخ في وجهه:

((افتح عينيك، افتح عينيك)).

فتح الصبي عينيه وهو ما يزال يتألم بشدة، فركله سونفو قائلًا: ((هيا!)).

أمسك سونفو بياقة الصبي، دفعه إلى أمام عربة الفاكهة، ثم أخرج حبلًا من صندوق ورقي وربط به الصبي أمام العربة. وما إن رأى بعضهم يتجمعون حول العربة، حتى قال للصبي:

((نادي بأعلى صوتك: أنا لص)).

اكتفى الصبي بالنظر إلى سونفو، دون أن ينبس ببنت شفة. فأمسك سونفو بيد الصبي اليسرى، وقرص إصبعه الوسطى، فصرخ الصبي على الفور: ((أنا لص)).

((الصوت ضعيف، أمرتك تنادي بأعلى صوتك)). قال سونفو.

نظر إليه الصبي، ثم أخفض رأسه، وراح ينادي بأعلى صوته: ((أنا لص)).

هكذا حتى هز سونفو رأسه معبرًا عن رضاه بمستوى الصوت قائلًا: ((نعم هكذا، هكذا يكون النداء)).

وفي عصر ذلك اليوم، انعكست أشعة شمس ذلك اليوم الخريفي على وجه الصبي، والذي كانت يداه مربوطتين من خلفه، مشدودًا من رقبته بالحبل، حتى لم يكن باستطاعته النظر إلى أسفل، فقط كان ينظر إلى الشارع أمامه، وإلى جواره الفاكهة التي يشتهيها، دون أن يجرؤ على النظر إليها. وما إن يمر أحدهم من أمامه، حتى يركله سونفو لينادي بأعلى صوته:

((أنا لص)).

وفي تلك الأثناء، كان سونفو يجلس خلف عربة الفاكهة على كرسي بمسند، وهو ينظر إلى الصبي راضيًا عما أنزله به من عقاب. فلم يعد يزعجه تعرضه للسرقة، بل أصبح يشعر بكل الرضا لتمكنه من القبض على السارق ومعاقبته، بالعقاب الذي لا يزال مستمرًا حتى هذه اللحظة.

لقد جعله ينادي بأعلى صوته أمام عربة الفاكهة، حتى أصبح صوته مصدراً لجذب انتباه المارة للاقتراب من فاكهته.

أخذ المارة ينظرون إلى الصبي بكثير من الفضول، وشغلهم معرفة السبب وراء صراخه بأعلى صوته: ((أنا لص)).

فما كان من سونفو إلا أن راح يكرر على مسامعهم قصة قيام الصبي بسرقة التفاحة، وكيف تمكن من القبض عليه، والعقاب الذي أنزله به، ثم أضاف:

((وهذا كله لصالحه)).

ثم أخذ يوضح لهم وجهة نظره في ذلك قائلًا: ((أريده أن يعرف خطأه، وأن يتوقف عن السرقة)). ثم سأل الصبي بصوت مسموع: ((هل ستعود إلى السرقة ثانية؟)).

هز الصبي رأسه نافيًا.

((أرأيتم!)) قال سونفو للجمع المحتشدين وهو يشعر بكثير من الرضا.

وحتى عصر ذلك اليوم، كان الصبي لا يزال ينادي، حتى تشققت شفتاه من شدة العطش، وبح صوته.

وعند الغسق، لم يعد بمقدوره النداء بصوت مرتفع، كان فقط ينادي بصوت مسموع بالكاد، ولكن دون أن يتوقف عن النداء: ((أنا لص، أنا لص)).

هكذا حتى لم يعد المارة قادرين على تمييز صوته، فيما كان سونفو يتدخل موضحًا: ((إنه يقول: أنا لص، أنا لص)).

وأخيرًا، فك سونفو الحبل من يدي الصبي ورقبته، ولما كان الليل قد دخل، جمع سونفو بضاعته فوق العربة، حرر الصبي من قيده، ولمَّ الحبل وألقى به فوق العربة، وعندما سمع صوتًا من خلفه، التفت فإذا به صوت سقوط الصبي على الأرض، فقال:

((سأرى إن كنت ستجرؤ على السرقة ثانية!)).

ركب سونفو عربته، سار بمحاذاة الطريق الواسع، تاركًا الصبي يرقد مكانه في حالة إعياء شديدة بين الجوع والعطش والتعب. ظل الصبي في مكانه بعد مغادرة سونفو، فاتحًا عينيه يراقب حركة الشارع أمامه. ثم نهض بصعوبة متكئًا على جذع شجرة بالقرب منه، وسار ناحية الغرب.

وعند الغسق، كان الصبي يسير وهو يجر جسده الهزيل، يسير ببطء شديد، حتى وجد نفسه خارج حدود المدينة. رآه بعضهم على تلك الحالة، فعرفوا أنه ذلك اللص الذي أمسك به سونفو عصر اليوم، دون أن يعرفوا اسمه، أو من أين جاء، وبالطبع ما هي وجهته الآن. وقد انتبهوا إلى يده اليمنى وإصبعه الوسطي. شيعوه بنظراتهم حتى ابتلعه الظلام.

وفي مساء ذات اليوم، عرج سونفو كعادته إلى متجر النبيذ، وابتاع شيئًا منه، ثم أعد لنفسه طبقين من الطعام، وجلس على الطاولة يتناول وجبة العشاء. عندئذ انعكس الضوء من خلال النافذة لينير سماء الغرفة، بينما هو يجلس أسفل النافذة يتلذذ بالشراب.

قبل سنوات مضت، كانت هذه الغرفة عامرة بسيدة جميلة وطفل في الخامسة، كان صوتهما يملأ جنباتها. كان دائمًا يجلس على كرسيه داخل الغرفة، ينظر إلى زوجته وهي تشعل الموقد بالخارج، وابنهما لا يفارق أمه ممسكًا بطرف ثيابها، يتهامسان خارج الغرفة.

وفي ظهيرة أحد أيام فصل الصيف، قصد الغرفةَ عدد من الصبية، وأخذوا ينادون على سونفو، أخبروه بأن ابنه غرق في مياه البركة القريبة. وكانت تلك الظهيرة بداية رحلته مع الجنون. لحقت به زوجته عند البركة وهى تبكي بحرقة شديدة، حتى تأكدا بعد قليل من أنهما فقدا ابنهما إلى الأبد. وفي المساء، جلسا في الظلمة متواجهين، ينتحبان بصوت مكتوم.

وبعد أن أفاق الزوجان من هول الصدمة، بدأت حياتهما تعود تدريجيًّا إلى طبيعتها، ومرت عدة سنوات على تلك الحال. وفي شتاء احد الأعوام، مر بالمنزل حلاق جوال، جلس أمام بابهما، فخرجت إليه الزوجة، وجلست أمامه على الكرسي وطلبت منه أن يغسل لها شعرها ويقصه، وأن ينظف لها أذنيها، كما طلبت منه أن يساعدها في عمل مساج للكتفين واليدين، هكذا حتى شملها شعور غريب بالراحة، فسلمت نفسها لذلك الشعور، ثم عادت إلى الغرفة، وقامت بجمع أغراضها، وعند الغسق، هجرت زوجها ولحقت بالحلاق.

أصبح سونفو وحيدًا، لم يتبقَّ له سوى صورة عائلية قديمة أبيض وأسود، معلقة على جدار الغرفة، تجمع بينه وبين زوجته وابنهما الوحيد. يظهر فيها الابن في الوسط، مرتديًا قبعة قطنية أكبر بكثير من حجم رأسه، والزوجة على يسار الصورة، تفرد ضفيرتيها على كتفيها باسمة، مزهوة بجمالها. بينما يقف هو على يمين الصورة، بوجه شاب مفعم بالحيوية.

كتبت في 22–12–1995

المؤلف في سطور:

يوهوا

أحد أهم الأصوات الأدبية في الساحة الأدبية الصينية، وأحد أبرز كتاب ((جيل الرواد)) الذي يضم: مويان، ما يوان، سوتونغ، ييه جاويان، يوهوا، تسان شويه، قه فيي، سون قان لو وآخرين.

ولد في 3 أبريل 1960 بمدينة خانغجوو. مارس مهنة طب الأسنان لمدة خمس سنوات. بدأ مشواره الأدبي في عام 1983، نشر أول عمله له قصة قصيرة بعنوان ((النجوم)) في 1984. قدم حتى الآن خمس روايات طويلة: ((على قيد الحياة))، ((مذكرات بائع الدماء))، ((مناجاة تحت المطر))، ((اليوم السابع))، ((الأشقاء)). وست مجموعات قصصية تجمع بين القصة والرواية القصيرة، وخمسة كتب في المقالة الأدبية.

ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية بما فيها اللغة العربية. صدرت ترجمات أعماله في الكثير من الدول حول العالم: الولايات المتحدة، إنجلترا، استراليا، نيوزيلاندا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اسبانيا، البرتغال، هولندا، السويد، النرويج، الدنمارك، فنلندا، اليونان، روسيا، بلغاريا، المجر، التشيك، سلوفاكيا، صربيا، بولندا، رومانيا، تركيا، البرازيل، مصر، الكويت، اليابان، كوريا الجنوبية، فيتنام، تايلاند وغيرها من الدول.

حازت أعماله جوائز محلية وعالمية منها:

جائزة ((جرينزاني كافور للرواية)) (1998) ، ((وسام الفنون والآداب الفرنسي برتبة فارس)) (2004)

((جائزة الإسهام المتميز في الكتاب الصيني)) (2005) وغيرها من الجوائز المحلية والعالمية.

صدرت الترجمة العربية لرواياته:

((على قيد الحياة)) عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سلسلة ابداعات عالمية، 2015. ترجمة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز.

((اليوم السابع)) عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سلسلة ابداعات عالمية، 2016، ترجمة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز.

((مذكرات بائع الدماء)) أطلس للنشر والتوزيع، مصر 2016. ترجمة: د. حسانين فهمي حسين.

المترجم في سطور

د. حسانين فهمي حسين

من مواليد 1979، أسيوط، جمهورية مصر العربية.

درس اللغة الصينية وآدابها بكلية الألسن جامعة عين شمس، وتخرج فيها عام 2000.

حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن والعالمي من جامعة اللغات ببكين عام 2008 عن دراسة بعنوان ((الأدب الصيني الحديث في مصر)). والتي ستصدر قريباً في كتاب باللغة الصينية عن واحدة من أكبر دور النشر الصينية.

أستاذ مساعد بقسم اللغة الصينية- كلية الألسن جامعة عين شمس.

أستاذ مشارك بكلية اللغات والترجمة جامعة الملك سعود.

عضو الجمعية الدولية لدراسات الأديب الصيني لوشيون.

عضو الجمعية الدولية لدراسات أديب نوبل الصيني مويان.

شارك في تأليف أكثر من عشرة كتب باللغة الصينية صدرت في مصر والصين.

قام بإعداد ثلاثة معاجم متخصصة بين اللغتين الصينية والعربية في مجالات السياحة والآثار، التجارة والاقتصاد، والسياسة والعلاقات الدولية.

قام بترجمة ومراجعة أكثر من ثلاثين كتابًا بين الصينية والعربية، صدرت عن دور نشر في مصر، لبنان، السعودية والصين.

منها: رواية ((الذرة الرفيعة الحمراء)) لمويان (نوبل 2012) صدرت في يناير2013، ((مختارات قصصية لكاتبات صينيات معاصرات)) (2015)، صدرا عن المركز القومي للترجمة. ((الصبي سارق الفجل)) رواية للصيني مويان، صدرت عن سلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب (2015). ((الموبايل)) (رواية) للروائي الصيني ليوجين يون، صدرت عن دار ضفاف بالتعاون مع بيت الحكمة، (2015). ((مذكرات بائع الدماء)) (رواية) للروائي والقاص الصيني يوهوا، صدرت عن دار أطلس للنشر بالتعاون مع بيت الحكمة (2016). ((موجز تاريخ التبادلات الثقافية بين الصين والعالم العربي)) (2016)، ((المسيرة الجديدة للإصلاح الاقتصادي في الصين)) (دراسة) (تحت الطبع) عن دار جامعة الملك سعود للنشر بالمملكة العربية السعودية وغيرها من الأعمال المترجمة.

((التنين يحلق. دراسات حول الاستثمارات الصينية الخارجية)) (مراجعة)، ((الحزام والطريق، تحولات الدبلوماسية الصينية في القرن 21)) (مراجعة) و))الريف الصيني بين الإصلاح والتطوير)) (مراجعة) صدرت الكتب الثلاثة عن سلسلة ((قراءات صينية)) التي تصدر بالتعاون مع دار صفصافة للنشر والثقافة.

حصل على:

- جائزة ((الشباب للترجمة)) المركز القومي للترجمة– 2013

عن ترجمته لرواية نوبل 2012 ((الذرة الرفيعة الحمراء)) لمويان.

-((جائزة الإسهام المتميز في ترجمة الكتب الصينية)) عام 2016. عن مجمل إسهاماته في الترجمة بين اللغتين الصينية والعربية. وهي أكبر جائزة صينية في مجال الترجمة تُمنح للمترجمين الأجانب.